خطوات نحو التجديد

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

نشر وتوزيع
الأمة
الرياض
هاتف: ٢٤٨١٧٠٥ ١ ٩٦٦+ / ٦٨١٥٠٢٧ ٢ ٩٦٦+

خطوات نحو التجديد

د. علي بن حمزة العمري
رئيس جامعة مكة المكرمة المفتوحة
www.alomarey.net
Email : ali@4shbab.net
ص. ب : ٣٥٠٢٣ جدة ٢١٤٨٨

الأمة
مؤسسة طريق الأمة للنشر والتوزيع

مقدمـة

جيل الفكر والدعوة اليوم جيل تفتَّح على مستجدَّات جديدة، ويعيش تطلُّعات متنامية، وهو في الوقت نفسه يتساءل عن ذاته ودوره ومستقبله!.

لا شك أن التكوين الدعوي اليوم يحتاج إلى البناء الذي مارسه النبي ﷺ مع صحابته الكرام، حتى صاروا خير أمة، رغم أن سنن التغيير هي نفس السنن!.

فالتربية الدعوية أمر لا مناص منها في تكوين الداعية، وتحقيق رسالته.

وفي المقابل هناك وسائل، وآفاق فكرية، غايتها في المآل التأثير في الناس، والتمكين لدين الله.

وهذه الآفاق والنظرات تحتاج إلى مراجعة وتأمل وتجديد.

كما أن هناك متغيرات على مستوى الدول والأمم، تمس الحياة بكافة شئونها.

ولذا فإن من الأمور الصحيَّة أن يتبادل جيل الدعوة هذه الهموم المستجدَّة في واقعهم، بحسِّ الداعية، ونظرته للحياة.

وهم في هذه الحوارات بحاجة إلى من يشاركهم الرأي، ويبادلهم الخبرة، ويعينهم في تجلية الحقائق، والوقوف المتوازن في مسيرة الحياة.

ومن هذه الهموم والمشاعر انطلقت فكرة هذا الكتاب عبر مقالات متسلسلة برؤى متجانسة لا تعدو أن تكون حوارًا راقيًا مفتوحًا، مفعمًا بالحب، متطلِّعًا نحو المستقبل، منسجمًا مع أدوار الدعوة، وآفاقاً فكرية ونظرات ميدانية، تتلمس خطوات عملية للجيل ليستوعب حاضره، وينطلق نحو مستقبله.

فلا غرو أن يجد فيها جيل الفكر والدعوة الحديث الحرَّ الوقور، الشفَّاف الصادق، المهذَّب النصوح.

حديث يرنو إلى التجديد لا التقليد، والتناصح لا التفاضح، والبناء لا الهدم، والتعاون لا التقاعس، والتجمُّع لا التحزُّب، والتودُّد لا التخاصم، والتحاور لا التلاوم، والتناصف بالحقِّ لا التجادل بالباطل.

إنه حوار مفتوح في مجالس غير مغلقة، ومن نافلة القول أن يكون صداه للعاملين!.

وفي كلِّ دعاة الخير الأمل، ولهم مني عاطر الحبِّ والود.

المؤلف
د. علي بن حمزة العُمري

الفصل الأول
نحو تجديد الوعي

إسلامية القرن العشرين

تحدث العلامة (محمد قطب) في كتابه (جاهلية القرن العشرين) عن الحالة المأساوية التي عاشتها الأمة من خلال نظرته وقراءته للماضي والحاضر، ولكنه قطعاً لم يتحدث عن المستقبل، الذي كتب عنه أخاه الأستاذ سيد من قبل في (المستقبل لهذا الدين)، ثم كتب هو بعده عن المستقبل في (هذا هو الإسلام)، وأن الإسلام قادم.. قادم، سواءٌ عن طريق الهمجية الغربية المتغطرسة التي تؤدي إلى غضب الشعوب عليها، والثورة على جرائمها، وهو الطريق القصير الذي يسبب الانتقام، أو الطريق الطويل الذي هو طريق الرسالة المحمدية، والذي يقتضي التربية وفق المنهج الرباني ثم التغيير الميداني الراشد.

هذا عن المستقبل المتفق عليه، فلماذا لا نتحدث عنه؟!

لأنه وباختصار لو حلف العلامة (محمد قطب) أن مراده من جاهلية القرن العشرين هي المظاهر التي تشبه في تفكيرها ما كان عليه جاهليو مكة في التصورات التي عادت الإسلام وتصوراته عن

الحياة، فإن كل هذا لن يمنع القيل والقال عما كُتب ببعض الحق أو ببعض الزيف!

إذاً وما دمنا مؤمنين بأن المستقبل لهذا الإسلام، فعلام لا نتحدث عن المتفق عليه من (إسلامية القرن العشرين)؟!

لماذا لا نتحدث عن الدور الحضاري والفعل الرسالي الذي يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم، ويلتقي أفراده عليه، ليكونوا جزءً من الفعل المؤدي للكسب، متحركين مع سنن الكون، للتحقق بالمقدمات المؤدية للوجود الحضاري ليكون الشهود الحضاري بعدئذ!

هنا لن نعود للوراء، ونتباكى على الوضع المأساوي المقلق الذي عاشه العرب والمسلمون، والهوان الذي حلَّ بهم أيام النكبة لا النكسة كما كان يصر المفكر (د. قسطنطين زريق) والذي شابهه في الحال (د. يوسف القرضاوي) في دروس ما بعد النكبة. إن تلك القصة على عمق جراحها، ومدى كارثيتها إلا أننا في المآل نحتاج إلى توصيف عصري، يجلِّي السنن التي لا تختلف، ولكنه لا يغيِّب المفاهيم الحديثة والأساليب العصرية التي تُقرأ بها السنن جيداً!

وأمامي هنا ملامح عامة للتخلف الحضاري العام الذي نعيشه، والذي يمكن أن ألخصه في (التخلف القيمي، والتخلف التقني، والتخلف المعرفي). والذي يطالبنا بذكر المعالجة المفروضة المتمثلة في (التعبئة النفسية، والقدوات العملية، والأصالة المنهجية).

فأما عن التخلف القيمي: فهي المحاولات لوضع كل فرد مسلم يتاجر بأخلاقه إلى أن يصل به الحال كمن (اتجر بالبصل فلم يشم رائحته)!

إننا عندما نقرأ الأرقام المفزعة عن انتكاس القيم، وتفشي العيوب على مستوى النخب والعامة ندرك مدى الخطورة والنكبة الحقيقية التي نعيشها. وبلغة العصر فإن وسائل الإعلام تلعب لعبتها الكبرى، وتسرح وتمرح، وتستخدم كل طرائق الإغراء الرسمية المحلية والعالمية لتأكيد جودة القيم التي يعرضون! واستشهد هنا بمثالين يسيرين يعبران عن الحال:

١ـ كنت في إحدى المحلات التجارية أنتظر الدور لإنجاز أمري، وجلس بجواري طفل صغير لا يتجاوز العشر سنين، وعليه ملامح البراءة، وكنت مشغولاً ببعض الاتصالات عبر (الجوال)، فلمحته فإذا به يرفع رأسه حيناً لجهاز التلفاز المنصوب أمامنا، ويخفضه حيناً، فلما رفعت رأسي وجدت فيلماً هندياً مما لا يخفى معناه لمجرد ذكر (الأفلام الهندية)!

ولك أن تتخيل هذا الفرض والاكتساح حتى في المحلات التجارية وأمام الأطفال!

٢ـ في إحدى البرامج التلفازية الفنية قامت مذيعة البرنامج بتقديم هدية لضيفة البرنامج (فنانة) كمفاجأة تقدمها القناة

باسمها، وإذا بالهدية تذكار جميل من (سفارة دولة عربية مسلمة) للفنانة التي استضيفت من إحدى الدول العربية، وشاركتها دولتها فرحتها في الاستديو، ومن البديهي أن تستغل القناة المنتجة هذه العلاقة بين الفن والسياسة!

ولو تأملنا التخلف التقني: ولم أشأ أن أقول (العلمي) للدلالة على أهمية هذا اللون العلمي في عصرنا، لوجدنا العطاء البحثي وتمويله يعتبر كارثياً في بلادنا العربية، ومن هنا فإن ضغط الإعلام اليوم عبر الفضائيات ومواقع الإنترنت والفيس بوك، ومثيلاتها، بل وعبر عرض النماذج الحضارية للبلدان المتقدمة بكل الوسائل الممكنة (صحفياً، تلفزيونياً، مسرحياً، روائياً، كاريكاتورياً،...) له أثره وبعده.

إذ لا يجوز بحال من الأحوال قبول هذا التخلف، حتى صرنا نستورد وسائل عبادتنا (السجادة)، كما يقول (مالك بن نبي)!. كما لا يجوز الرضا بضياع الأوقات في الازدحام وتأخر المعاملات وضعف الإنتاج دون طلب تغيير حقيقي، وهذه فريضة جهادية لازمة لكل أبطال الإعلام والفن والأدب الذين يسهمون في ردم الهوة.

ومن المضحكات المبكيات في هذا الصدد أنَّ نصف الوفيات من حوادث المرور في السعودية ناتج من استخدام قطع غيار ذات جودة متدنية، كما صرَّح الأستاذ عيسى العيسى المستشار في إدارة الجمارك!

فكيف لو قارنا هذه المأساة أو (الجريمة) بحديث أبي برزة، قلت: يا نبي الله، علمني شيئاً أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»؟! (رواه مسلم: ٢٦١٨).

وفي مقابل ذلك يكون من المهم جداً تكثيف النماذج الحية التي تطور في المجتمع، وتضع الحلول المناسبة، وإذا لم يكن فعلى أقل تقدير (إزاحة النجاسة) على طريقة الفقهاء، لنعيش طهارة الشارع، وطهارة اللسان، من جراء كبائر التخلف التقني (ولا حول ولا قوة إلا بالله)!!

وعن التخلف المعرفي: فإن مأساة قراءة الأجيال للكتب، ونوعية اطلاعهم على الدراسات والبرامج أمر مخجل. وأذكر مرة أنني كنت أعيد النظر في الإحصاءات العالمية التي تفيد بأن حجم القراءة لدى العرب (٥ ساعات) سنوياً، ولكنني لم أقف عندها طويلاً عندما علمت أن نسبة (الجيد والمقبول) في الجامعات والثانويات تفوق النصف، وأن قرابة (٣٥٪) من الشباب العاطلين في كبرى بلاد الخليج لم يتجاوزوا المرحلة المتوسطة!

وهنا نقف عند مسؤولية الجهات الرسمية والمدنية لإعادة تشكيل العقل الشبابي بالمعارف الجيدة وبالأساليب المميزة، بعيداً عن الحشو والسطحية والتقليدية والمحسوبية والأنانية، على المستوى الشعبي والرسمي بل وحتى الدعوي للأسف!

وحتى لا أمضي على طريقة أنصاف الحلول أرى أن من الخطوط

الموازية والمهمة والمؤثرة للحلول، لتحقيق (إسلامية القرن العشرين):

١ـ **التعبئة النفسية:** وإعادة الأجيال لروح الفضائل، وإعزازها بدينها، والتكريم المستمر لروادها، وإحياء رسالتها، وإبراز مبدعيها، وتكثيف النزول الميداني، بالعمل المنظم المتقن، المخطط المدروس، الموجه المبدع، في الميادين الاجتماعية، وحتى النضالية، بلا خوف أو خجل أو قلق أو تسرع!

ومن البديهي القول أن التعبئة ليست بالقول عبر المنابر والمنصات فحسب، بل بالمشاريع المنافسة التي تبعث الأمل!

٢ـ **القدوات العملية:** وضرورة إرسال الشباب إلى البعثات العلمية والتقنية بل وحتى الإنسانية لدى الجهات المتقنة، مع إحسان بنائهم وإرشادهم، واستغلال كل وسائل العصر الحديثة لإبراز البرامج والجهات العاملة لتتغلغل في صفوف الناشئة والشباب والأسر، بخط إبداعي قيمي راق، على جميع الأصعدة، بعيداً عن التحلل الديني، والحساسية الاجتماعية، والتقليد البارد!

٣ـ **الأصالة المنهجية:** والتي تتحرك من خلال القدوات، وتبنى من خلال الصروح العلمية، والمراكز المفتوحة، على يد الرجال والنساء من أصحاب العلم والوعي والبصيرة والحكمة والرؤية المستقبلية.

ثم من خلال التحرك بهذه المنهجية في حياة الناس، في ظل

المراقبة والمحاسبة، لتكون القدوات الحية نماذج تسير بأصالتها في ميادين الحياة كاملة، فلا يحدث التناقض ولا التلاوم، بل كما أراد الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، **وحتى نكون خير أمة في القرن العشرين لا بد أن ندعو إلى المعروف قولياً وفعلياً وسلوكياً وفكرياً ونحن أول المقتدين، وأن نبتعد عن المنكر الأخلاقي والسلوكي والذوقي واللفظي والشعوري والاعتقادي، ونكون أول المنتهين!**

الآراء الفقهية بين العلن والخفاء!

مع التغيرات الهائلة في تلقي العلوم والمعارف عبر الوسائل والوسائط المختلفة لاحظت أن بعضاً من الفضلاء من المنتسبين للعلم أو الدعوة أو المعروف يدينون بآراء فقهية على العلن ويدينون بغيرها في الخفاء!

والرابط المشترك في الوصف المغاير أنهم يحملون الناس على رأي ويحملون أنفسهم على رأي آخر، بمعنى أنهم يعتقدون مقدرتهم على استيعاب المختلف عليه، وحسن تطبيقه تحت غطاء الاختلاف المسموح به، ولكنهم يخشون من الناس ألا يفعلوا ذلك!

وقد وجدنا في تاريخنا الزاخر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما حمل الناس على الطلقات الثلاث مرة واحدة أنها بثلاث جاء عنه أن ندم على ذلك في آخر خلافته، وأنه حمَّل الناس أكثر مما نظر إليه في المآلات، وأن الأولى به أن يسمح بما كان في العهد النبوي إلى يوم خلافته.

هذا وأمير المؤمنين لم يخالف قوله فعله!

ومما نـراه فـي ساحة هـؤلاء الفضلاء نكيرهم على جملة مستكثرة من المباحات تعرض في شاشات التلفزة، أو في وسائل الدعوة، أو في معيشة الناس، وتحاط هذه المباحات بمواعظ مكثفة مخلوطة بفقه الأحكام التي ترفع المباح إلـى المكروه والمحرم أحياناً!

في حين لا تخطئ عينك مساحات كبيرة من فعل المباح وتسويغ جملة مستكثرة من المختلف على إباحته في تصرفاتهم وسلوكهم، وفي مجالسهم وأسفارهم ومعاملاتهم الشرعية والمالية!

لقد أيس الناس من شدة النكير عليهم في أمور لا تقاس بما قاسه بعض علمائهم المفتين، وخطبائهم الناريين، ووعاظهم المتحدثين. إن فقه (الحلال والحرام) في الإسلام ليس مجرد فتيا، أو مطوية منشورة، أو لوحة مصورة.

(الحلال والحرام) تشريع ديني متين، وتربية إيمانية راقية، ودعوة لتقديم الأولويات،ومراعاة المصالح والمفاسد والمآلات.

ومما نـراه في ساحة هـؤلاء الفضلاء كذلك إسقاط ما يرونه من تجاوزات شرعية وتهافت على المحرمات التي صورها الإعلام المشؤوم على كل الطبقات، وطغيان التحذير والتشكيك في المحاولات النظيفة النقية.

وما إن تقلّب النظر في المطبوع من الرسائل التأصيلية والردود الكلامية، إلا وتجد كأن الدنيا لبست ثوب الحداد، وأن الناس قد انتكسوا!

وكأن النصائح المجموعة والأقوال المنقولة دين يجب اتباعه، وعدم القبول بغيره!

ولعمري لست أدري كيف سيفسرون أقوال الأئمة: (إنما الفقه الأخذ بالرخصة عن ثقة)، وقولهم (العالم هو من يحسن التيسير لا من يحسن التشديد لأن التشديد يحسنه كل أحد)؟!

أعرف أن الكلام في هذه المسألة يطول، وأن الاختلاف بين الأئمة حول هذه الهموم لا ينتهي، **وإن كانت غايات دعواهم في المختلف عليه لصالح النفس لا تخلو بين الأخذ بـ (الأَشَدْ) و(الأَسَدْ) أو (الأيسر)، كما في روايات الحديث والآثار المختلفة.**

ولا يحسن تقليب الناس بين هذه المضامين الشرعية الثلاثة إلا العالمون الذين تطابقت رؤاهم في السر والعلن!!

الأعمال الكاملة .. وحياتنا القادمة

في مطلع كلِّ عام هجري جديد، لا تكاد الموعظة الدائمة تحرك فينا ساكنا عما مضى من العمر، وما سيأتي منه، وما ينبغي أن نستعد له!

والحقيقة أن لدينا إشكالاً كبيراً في طرح المواضيع التي تمس النظر إلى الحياة والأمل فيها.

وتكمن هذه الإشكالية في النظرة القاصرة لفهم طبيعة الدنيا، ومدى الاستفادة من مسخراتها. فعدد كبير من الوعاظ يدينون الملذات والمشهيات وسعة الخيرات، ويضعونها كلها في سلة واحدة (الترفيه)!

ومن أسباب نشوء هذه المشكلة التي تحولت إلى ظاهرة عدم العيش في مجتمعات النجاح، وعدم القدرة أو البعد رغم القدرة عن مسببات النمو والتقدم والازدهار.

والعيب كل العيب أن نتخلى عن صور الجمال والعطاء والأمان المعيشي والكسب المتطور النافع والتلذذ بالحلال الماتع، لنكتفي

بالترهيب والتحذير من مغبة التعلق بالدنيا.

ولأن كسبنا ضعيف، وثرواتنا مهدرة، وطاقاتنا معطلة، فنحن الذين نتعلق بالدنيا أكثر، لأننا نحتاج ما يكفينا في هذا العصر!

نعم كان يمر على النبي ﷺ الشهر والشهران ولا يجد التمر الجيد، ولكن كانت تمر عليه الشهور والغنائم بين يديه، والأعنز قائمة عند باب بيته!

وكان يأتي أهله ويصلي بالناس فجراً بنفس الثوب ويحك الماء الذي أصابه، ولكنه كان يستقبل الوفود بأجود اللباس وأفخمها.

ويوم نرى اليوم ماليزيا المتطورة وتركيا المتنافسة وباكستان المسلحة، قد نستوعب معنىً واحداً من معاني (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

وهل القوة في البدن فحسب؟ ولو افترضنا ذلك، أليست قوة البدن تكمن في نوعية الأكل الممتاز والهواء الصحي، والنظافة الشاملة، والمجهود المتوازن؟!

وكيف يتم ذلك بدون قدرة مالية، وتكيف نفسي، وجو آمن، وبيئة صحية، واستطاعة على إحداث التوازنات؟

ثم كيف لو آمنا أن القوة ليست في الجسد فحسب، بل هي القوة الإيمانية والتنموية والاقتصادية والثقافية والعسكرية والأخلاقية؟

وحيال هذا التفكير لدينا خطيئتان، الأولى: في تحميل إخفاقنا سوء قواعد إدارة الحياة أو فهم استراتيجياتها، والثانية: مرارة المكافحة عند القدرة!

فعندما نجرب النزول للساحة بلا أدوات كافية، ولا تدريب جيد، ولا نفسية متعافية، ولا عقلية واعية، ولا هدف واضح، ونظن أن الناجحين على المستوى الفردي أو المؤسساتي مروا على بساط بساطتنا فنحن في وهم عريض!

الذي وصل للذروة نالها ولم تُنل له، والذي صار قوياً تجذرت نفسيته بمعاني القوة حتى انتزعها، والذي بزغ نجمه سطعت نجومه في داخله، ولكن المخفق يعظنا بالتقلل، ولم يحدد لنا ما هو التقلل الذي يجب أن نأخذ به ولا يعيق مسيرتنا في القرن الواحد والعشرين؟!

والذي **يعظنا بالتخفف والتواضع المتواري، لم يشرح لنا قواعد التنافس، ومضمار السباق، وأن يكون الإنسان رمزاً يقتدى به، أو إماماً حسب التعبير الشرعي، ولكن يبدو أن (الذين يشتمون الشهرة هم الذين فشلوا في الحصول عليها) كما يقول د. القصيبي!**

ثم نخطئ ونبتلى بالتشاؤم يوم نتمكَّن في بعض الأمر، فتذوق الدنيا مرارة مكافحتنا في طريقة معالجتنا لهموم الحياة بل وحتى في أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر!

لا أريد أن أتحدث عن المستقبل الذي يُنظر إليه بتشاؤم ـ رغم ظلاميته ـ كما يرى د. خالص جلبي بأنه (بين العرب والعلم مسافة سنة ضوئية)!

ولكني أدعو أن نمارس التغيير لا أن ننادي به فقط، وأن نكتب الأعمال الكاملة لحياتنا وفق منهج الإسلام،وفهم مقتضياته، والتسلح بمنهجياته، والعمق في نصوصه، والنظر والتحليل في أفكار علمائه، والاستفادة الكاملة لكل ما أذن به من المسخرات الدنيوية، التي لم نستفد منها، وطال حديثنا في تزهيدها، ولو كان الحلِفُ مناسباً في مجامع حديثنا لقلت: **والله إن الازدهار الدنيوي في حياتنا مصدر للازدهار الإسلامي في قوتنا!**

الإنسان والتحول

من عجائب قدرة الله أن يستطيع الإنسان التعبير عن الحياة والأحياء بكلمات شعرية تهز المشاعر، وتستوقف الضمير، وإن لم يشر صاحبها بأصبعه نحو أحد!

والمشاعر لغة تستبطن كل شيء، ولا تدخل في السجال الفقهي، أو الاختلاف الفكري، فهي لا تسمع هذا الحراك، إنها تحس النبضات فقط كما أحسها (بيتهوفن) عندما عزف معلقاته الموسيقية وهو أصم لا يسمع!

إن هذه الأحرف القصيرة يمكنها أن تدك القلوب الجامدة، وتكبح جماح النفس الشاردة!

ومن عجبٍ أن تقلب حياة الإنسان كلمة، أو قصيدة، أو قصة!

لقد كنتُ أمضي طائعاً غير جامحٍ

ويفضحني فيكِ اقتحامي وغَيرتي

ويأكل قلبي ما أكتِّمُ راضياً

وأنتِ.. لعمري في سرور وغبطة

أأنـثـى ووحـشـ؟! جـلَّ خـالـقُ خَـلْـقِـه!

وأرضـى بإطـراقـي على الـرَّيـبِ أو غَضِّي

وطـرفـي، ومـا جسَّ الأطـبـاءُ مـن نَبْضي

فـمـا بـكـتِ الـعـيـنُ الـشـبـابَ الـذي يمضي

يـسـرُّكِ بسطي فـي الـحـوادثِ أو قبضي

وسبحان كاسي الوحش من رونقٍ غضٍّ!

إنه الإنسان الذي يجمع بين الحب والغدر، والفن والعنف!!

لقد قرر الإمـام ابن القيم في «روضة المحبين» أن الإنسان يمكن أن يعيش في الساعة الواحدة تقلبات النفس الثلاثة (اللوامة، المطمئنة، الأمارة بالسوء)!

والحياة المعاصرة اليوم تريد أن يتحول الإنسان سريعاً من داخله مرة في رحلة النفس المطمئنة، ثم الأمارة بالسوء، وبعدها اللوامة، وأن يستمر هكذا دواليك، يتحوَّلُ ويتشيَّءُ في كل ساعة.

تريد الحياة المعاصرة أن يتحول يوم الإنسان من نهار إلى ليل، لا ليكون الليل لباساً وقياماً، بل ليكون الليل أداة لراحة من يحبون السهر والسمر بما يحلو لهم، بعيداً عن ضجيج الناس، إنما ليضجوا بأنفسهم بالطريقة التي يريدون!

أن يتحول الإنسان إلى كرة ثلجية يذوب أيام الموالد وشعبان والإسراء والمعراج، ليجد المبعوث الأمريكي في مصر قبله حاضراً هذه المواسم، وهو يشاهد المسلمين يذوبون في الحب الإلهي حسب تعبيرهم.

ثم تتحول هذه الكرة الثلجية مع الهواء البارد المندفع نحوها إلى حجر قاسٍ يُرمى به ليكسر كل شيء أمامه، ويعيق كل حركة.

كما تتحول نفسية الإنسان حسب قاعدة القبعات الست، فيدخل إلى الوجاهة بهيئة ونفسية غير تلك التي اعتادها الناس في الحارة وفي المسجد وفي المقهى!

ويمكن أن يكون حقيراً لحظتها لأن لزوم العمل الجديد، والكرسي الخشبي أو الجلدي الجديد يتطلب ذلك، وينسى ما عبَّر عنه (لاردشفوكو): «عندما نعجز عن إيجاد الخير في أنفسنا فلا جدوى من البحث عنه في مكان آخر».

هذا الصنف الإنساني ينتظر أي لحظة تسلل إلى وجاهة أو منصب أو مكان يذكر فيه اسمه، أو يظن أن أحلامه ستتحقق هناك، ليصير مع الأيام شخصية متحولة أخرى، ولكنه في غمرة النشوة يتغافل أن الغناء من حنجرة القبيح لا طعم لها، وكما قيل: «حتى العصفور لا يستطيع أن يغني على الشجرة الميتة»!

وقد جرَّب الكاتب الكبير (عرفان نظام الدين) حياة الإعلام المقروء والمنظور في رحلة دامت أربعين عاماً سجلها في كتابه

(ذكريات وأسرار ٤٠ عاماً في الإعلام والسياسة) فكان مما قال عن حقيقة الإنسان والتحول: «في مراحل حياتي المهنية وفي كثير من المحطات تغلبت فيها كرامتي على كل أمر آخر»!

وعندما نفهم ما قاله المفكر الاستناري (هلفتيوس): «نحن من صنع الموضوعات المحيطة بنا، ليس إلا»، وما قاله المفكر الاستناري الآخر (كابانيس): «إن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة»! حينها سنستوعب فكرة جديدة في تحول الإنسان إلى آلة.

ومن عجيب قصص هذا التحول الذي تدعو إليه الفكرة الغربية ما ذكره (د. عبد الوهاب المسيري) عن صديق له كان يشرب معه القهوة كل صباح، ثم يراه مسرعاً نحو الكمبيوتر ليرى أي رسائل وصلته ليرد عليها، وكيف كان يتحدث بسرعة ليستفيد من الوقت ما استطاع. وذكر أنه في إحدى المرات أوصله إلى محطة قطار، وقد وصلوا قبل الموعد بـ ٩ دقائق، فضحك الصديق وقال: عندي ٩ دقائق الآن لا أعرف ماذا أفعل فيها، فإنني لم أخطط لها!!

إن فكرة تحول الإنسان لا نحو التفهم والتعقل والتطور الإنمائي، بل إلى ما يمليه الواقع والنفس، يجعله مسلوب العفوية والحياة الطيبة والمؤاخاة الصادقة وقبول الفكرة!

ولربما يدرك الإنسان خطورة هذا التحول وأبعاده في الوقت بدل الضائع دون أن يتحول إلى حالته الصحية، ولا أدل على ذلك من

موقفي مع أحد الضباط الكبار في إحدى المؤتمرات، وكان تاريخه الأسود مشهوداً بقتل العشرات بل المئات من سياسي الرأي العام، فتنكر مما اقترفته يداه، وأنه لم يتحول وقتها إلى وحش.

وفي جلسة عشاء معه على شاطئ البحر، قال: أتمنى أن تعود هذه اللحظات الجميلة إلى حياتي، فإني أفقدها، وأرى حزناً يدب دوماً في غرفتي لا أعرف سره!!

الحزن حين دق بابنا هذا المساءْ

ظننته عاصفةً هوجاءْ

عاصفةً مستعجلهْ

تكاد أن تقلع بيتنا.. وتقتلهْ

ظننته شتاءْ

أفلتَ من موعده.. وجاءْ

وحينما فتحتُ بابَنا

ظننته سينتظرْ

حتى أرد الثوب فوق عورتي

حتى أقول مرحباً

لكنه حتى بدون أن يرد نظرتي

تجاوز البابَ

تجاوز اليد التي مددتُها له

وحينما تبعته

رأيتهُ

يخلع ثوبَه ويرتمي على وسادتي

وبعد لحظتين.. اثنتين.. نامْ

وغاب في الأحلامْ!!

الإنسان والعصر

قديماً كان يقول المفكرون وعلماء الاجتماع: الإنسان ابن بيئته، واليوم تضيف نفس الفئة: الإنسان ابن بيئته، وابن عصره.

سابقاً كانت النظرات والمقارنات وحالات التقويم تركز على طبيعة البيئة المحدودة غالباً. بينما اليوم يمكن إضافة نظرة مهمة للتقويم قوامها طبيعة العصر!

إذ ما عادت البيئة وحدها كافية للتأثير والتغيير ـ أياً كان ـ، بل العصر اليوم بكل ما فيه وما يلقيه وما يعتريه، عامل أساس للتقبُّل أو التبدُّل الفكري، أو الانسجام والتأقلم النفسي.

وبالعودة لطبيعة العصر، فإنه يقذف (بثورات) متتالية، و(شبكة) لا متناهية من الجاذبات، و(فورات) متشعبة من الحركات والتطلعات.

ففي العصر ثورة معلوماتية، وثورة تقنية، وثورة فنية، وثورة عسكرية، وثورة سياحية، وثورة رياضية، وثورة اقتصادية، وثورة جنسية، وثورة إعلامية، ..

وفي العصر فورة حزبية، وفورة تطوعية، وفورة حضارية، وفورة جهادية، .. .

عصرٌ ما عادت الحكومات تستطيع التحكم بكل ما يتيحه، ولا الأفراد قادرون على الثبات على حال فيه!

في ظل هذا الواقع تشكلت منهجيات جديدة في البعد العلمي، ونظرات جديدة في التعامل الحياتي.

لقد باتت في هذا العصر كل المعطيات التي يحتاجها الإنسان متاحة بين يديه، ولكن رغم ذلك كله يبدو أن جماعات كثيرة بعيدة تماماً عن الاستفادة من هذا المتاح، فضلاً عن التفكير في الاستفادة منه!!

فثمة دراسات بحثية، وفتاوى دينية، وكتابات شرعية، وتنظيرات دعوية، تدور في فلك واحد، غاية ما تقوله عند طلب مراجعتها، وإعـادة النظر في مضامينها، بأنه الحرص على منهج السلف المتقدمين، وما كان عليه العلماء المعتبرون من المتأخرين!

فتاوى بعضها حاد، ومخالف لروح التشريع، وفقه النص، وأخرى دراسات بعيدة عن التمحيص للأقوال، وسعة الاستدلال، وأفكار دعوية ما عادت تناسب الحال، ولا طبيعة واقع النساء والرجال.

ليس الأمر في الانقلاب على القديم لأنه قديم، ولا الانجذاب للجديد لأنه جديد. الأمر في العيش الهنيء مع دين لا يخالف الفطرة، ويدعو للتجديد، والسير في مناكب الأرض.

دين يقيس الواقع، ويضع الأطر العامة، والقواعد الكلية.

دين كامل بنصوص القرآن المفسَّرة بوضوح، وأحاديث صحيحة كثيرة منها عموميات وخصوصيات، وثمة ما يدعو للعجب حيال هذه النصوص الشريفة، وهو الدعوة إلى الاجتهاد من أهله لكسب أجرين عند الصواب، وأجر عند الخطأ!

إن كل ما ندعو إليه: هو إشاعة النصوص الشريفة، وإحياء فقه التراث الواسع، المتجانس مع روح النص، المتماسك مع كلياته وقواعده.

هذا ما ندعو إليه أولاً ليعيش الإنسان المسلم عصره ومرحلته بشكل صحيح، دون انتقاء لنصوص تزهد في التلقي العلمي، وأخرى تلتمس وقائع محددة لتصنع منها قواعد حاكمة على تصرفات المسلم واختياراته!

وأما ما ندعو إليه ثانياً: فهو العيش الدنيوي الصحيح.

فالمستجدات والمتغيرات والقراءة الأشمل لنصوص الشريعة وفقهها لا يغير شيئاً من كون الحق لابد من اتباعه، وأن الباطل لابد من اجتنابه.

لا سبيل في ظل ما ندعو إليه للأنانية، وتقحم الشريعة لأغراض دنيوية آنية، أو السطو على ممتلكات بشرية لغايات وضيعة.

كما أنه لا سبيل في ظل ما ندعو إليه ليكون الإنسان المسلم المعاصر، نسخة طبق الأصل من عالم، أو مفكر، أو مرب، أو سياسي، أو ما شابه ذلك، بل هو التفكير العميق لما يقوله، ويفعله، ويتصرف به أمام الملأ.

وإذا كان العصر الحديث يجعل العالَم كلَّه في قرية، فإن في هذا فرصة للمسلم المعاصر، أن يختار متى ما يبادر، ومتى ما يسالم، ومتى ما ينكر، ومتى ما ينصح، ومتى ما يشارك، ومتى ما يعارض، ومتى ما يصمت.

لا يعني كون المسلم المعاصر يعيش في عالم مفتوح أن يخسر نفوذه وعلاقته، ونجاحه لخدمة الدين، لمجرد (اصطفافه) أو (مشاركته) لحدث ما، أو رأي معين، أو مطلب محدد بناءً على رأي الإنسان الآخر، أو توجه الآخر!

وباختصار شديد، نحن بحاجة إلى قراءة شاملة وواعية لنصوص ديننا، وفقه تراثنا، وفق الأصول والقواعد المعتبرة، كما أننا بحاجة أن نوظف احتياجاتنا الدنيوية التي نسخرها للدين، بعيداً عن المسارعة المحمومة لطوائف، أو تجمعات، أو مشروعات، ليس من ورائها مصلحة حقيقية، أو عطاء مدروس، أو مناصرة تستحق الإشادة، وقبل ذلك وبعده مرضاة الله وتحقيق عبوديته وخلافته في الأرض!

الحاكمية
بين الإسلاميين والديمقراطيين

يبدو أننا بحاجة إلى تأصيل دور الأخلاق في تصحيح السلوك الإنساني، لأن الكم الهائل من أصول الأخلاق لم يمرَّر في عقول المسلمين، ولم يترجم بالشكل الصحيح!

إنَّ نظرةً واحدةً في واقعنا اليوم تكشف لنا أنَّ كثيراً من المُسَلَّمَات لا تتجاوزُ حيّز (النظرية) ولا تتعدّى نطاق (القناعات العقلية) ، دون أن يكون لها ترجمةٌ عملية في الميدان.

فالواقع يثبت أن اضطراباً وشكاً وخوفاً يساور المجموعات العاملة في الحقل الإسلامي عند تبنيها لأي مشروع عملاق، وذلك خوفاً من تكرار الكوارث التي تقذفها أرحام المعاناة بشكل تلقائي، فتحدث هزة نفسية أو إصابة بأنفلونزا الإحباط!

فبعض حالات الضعف التي طالت الكثير من مؤسسات العمل الإسلامي على عدة مستويات، والتهلهل الفكري في المشاركة

الشعبية، والتقهقر في مسايرة الخطاب العصري، كل ذلك أدى إلى الإحجام، والثورة على منهج المتنبي في أخذ الدنيا غلابا!

ومن حالات التوتر التي تتشعب في أروقة نخب الإسلاميين، التترس بالحاكمية السلطوية في مشاريع العمل الإسلامي.

والتي تعني بقاء الأصلح والأنفع والأدرى بالأحوال والمرضي عنه. وهذه الاختيارات يقرّها ويؤدلجها ويقومها الفريق المسيطر على الحاكمية الإسلامية!

فأنت ترى أنّ انتقال كرسي القيادة في أي مشروع إسلامي كبير لا يكاد يكونُ سلساً إلا إذا كانت المشاريع روتينية.

أما لو كانت المشاريع تعني منصباً مرموقاً، وعلاقة بالجهات المسؤولة، واستفادة من المتاحات المالية، وتعييناً للكوادر المرضية، والأصوات المشجعة، فهذا الانتقال دونه الهوائل؛ لأن هذا الانتقال يعني فقدان الذات باختصار!

وهنا فقط يفتضح العمل المتعلق بالأفراد الذين ينافحون عن مناصبهم باسم الدين ويقومون للأسف بتأويل الحوارات، وتسييس المواقف، وفتْحِ الملفات، ولو لم يبق على مدة بقائهم في كراسيهم إلا ساعة، طالما بإمكانهم أن يمدّوا الساعة إلى يوم، واليوم إلى أسبوع، والأسبوع إلى شهر، وإلاَّ لاختلقت الأوهام والأكاذيب تحت غطاء العمل في سبيل الله!

وللأسف فإن عدداً من التجارب الكبرى في المشاريع الإسلامية العملاقة ـ إن كان يمكن أن توصف بذلك ـ ما زالت تعاني من الحاكمية الأخلاقية الذاتية.

ويمكننا أن نجيب على سؤال بسيط قد يطرحه مثقفو العمل الإسلامي، ما الرابط بين الإسلاميين والديمقراطيين؟، والجواب المنطقي الواقعي: (الحاكمية)!!

النزعة إلى البروز

ينتابني شعور ببعض الأسى كلما قرأت وسمعت عن منظمة أو هيئة أو مؤسسة أنها غير مؤدلجة بنظام وعقلية مسبقة، فإذا نظرتُ إلى نظامها الأساسي أو رسالتها وأهدافها المعلنة وجدتُ التضارب العملي بين المقيد رسمياً والمعمول به واقعاً!

فأنا لا أستوعب أن يتحدث رجل عن الزهد في البروز، وعدم الاحتفاء بالشهرة، وخطورة ذياع الصيت عبر الوسائل المختلفة، لكنه لا يألوا جهداً إن طلَبَتْهُ جهة إعلامية أن يُبرز كل أنشطته وأعماله، بل يشترط في ظهورها مالا يحتمله الموقف أحياناً.

وقد تجد عند (المنعزلين) من عجائب الحرص على ذيوع صيتهم مالا تجده عند من (احترقت أسماؤهم) كما يُقال!

وربما لقيت في سجل منظمة أو هيئة أو مؤسسة عامة أو خاصة، محلية أو دولية، تتبنى تعددية الرؤى والأفكار، من الحرص على إظهار رجالاتها العاملين، وأعضائها المنتسبين ما يجعلك تعجبُ

أشدَّ العجب، وتتساءل: أكلُّ هذا الظهور والبروز للأفراد يندرج تحت بند (عدم التركيز على الأفراد والأحزاب)؟!

إنه من الصعب اليوم ملاحقة فكر من نزع إلى البروز على المستوى الفردي أو المؤسسي أو الجماعي أو الدولي، كما أنَّه من الخطأ توزيع شهادات النجاح على المؤسسات والهيئات لمجرَّد أنها تنادي بالانفتاح والتعددية على حين يشهد واقعها العملي تركيزاً فاقعاً على فرد أو أفراد، أو فكرةٍ أو أفكار! ولن يكون مجدياً البتة في عصر العولمة والوعي إقناع النخب والمطلعين على حقائق الأمور، أنَّ تشبُّع فرد أو مؤسسة أو منظمة أو حزب بفكرة التعددية قول مسوغ لإبراز أنفسهم أياً كانوا بشكل مكثف!

إنَّ الإيمان بفكرة تعددية الأفراد والمؤسسات لا يجوز أن يكون مانعاً من نشر الرؤى والانطباعات الخاصة لفرد أو مؤسسة ما، بشرط عدم الاحتكار للفكر، أو نية الاحتكار لصواب ما يُقال، وكفى!

إننا بحاجة ماسة إلى فهم حقيقة نزعة البروز، وكيفية استيعاب هذه النزعة الإنسانية، وبيان مسالك ترشيدها وتوظيفها في الطريق الصحيح، مع الكشف عن دلائل مزالق نزعة البروز المنهي عنه، والمؤدي إلى التصرفات المخيفة حقيقة وواقعاً لا تخرصاً أو وهماً!

وأي قارئ مؤمن بتراثنا الإسلامي سيلحظ بدقة اهتمام سلف الأمة ـ رحمهم الله ـ بشكل كبير بهذه القضية، كما سيجد فصولاً

كاملة تحوي نصوصاً قرآنية وأحاديث نبوية وإضاءات سلفية نورانية تحت أبواب عدة من أبواب السلوك، وكلها تتحدث عن ضوابط تزكية النفس، وأحكام المدح، ومسائل الجرح والتعديل وما إلى ذلك.

ولعلي فيما يسعُ به المقام هنا أضمُّ جملة من الملامح العريضة والدقيقة حول هذا الموضوع المهم والتي تتطلب تحريراً يجمع بين المحافظة على منهج الإسلام في إصلاح المرء، وبين تشجيعه للمدافعة والمراغمة بلغة العصر!

وأجملها فيما يلي:

١. تحرير مصطلح البروز.
٢. علاقة البروز بالمقاصد الشرعية.
٣. الوسائل الصحيحة في البروز.
٤. غاية البروز: أهو للمبادرة لأمر ما، أو للقاء العدو، أو لزرع الهيبة، أو للتصدي للمنكر، أو حتى للإكرام؟
٥. البروز بين الأسباب البشرية، والمنح الربانية.
٦. خطورة البروز على أكتاف الآخرين، أو بالتشبع بما لم يعط الفرد أو المؤسسة مالياً أو فكرياً.
٧. أهمية الموازنة في لغة البروز بين الأفكار والمشاريع، وبين التحديات والمتطلبات.
٨. دراسة منهج البارزين في التأثير العام.
٩. التربية الإيمانية في تصحيح نيات البارزين.

الفكر السياسي
بين القراءة والممارسة

لا شكَّ أن القراءة في التاريخ السياسي تحدث عملية جدية في الغالب لتكوين الفكر السياسي، ولكن الأفكار إنما تربط بين الخيوط العريضة لحوادث التاريخ السياسي، لا أكثر.

وتبقى للممارسة الدور الأكبر في تجلية الواقع السياسي على حقيقته، والدور المطلوب في ظلاله.

ولذلك فإن الكتب التي جمعت بين القراءة في التاريخ السياسي القديم والحديث، ونقلت تجارب العلم السياسي من خلال الممارسة الميدانية، والوقوف الحقيقي على المشهد بكل تفاصيله وأبعاده، تعتبر ثروة مهمة، وأصولاً أساسية لبناء الفكر السياسي.

وشباب الأمة اليوم متطلعون جداً لمعرفة كواليس العملية السياسية التي تجري في بلدانهم، أو في ما يتعلق بشؤون أمتهم، وما يمسهم في مستقبلهم!

وهذا التطلع هو ثمرة للانفتاح الإعلامي، وبروز بعض قيادات العمل السياسي الإسلامي.

وإذا كان (رويبضة) العلم الشرعي، يخلخلون صف المسلمين، لضيق أفقهم، وقلة وعيهم، وضعف تكوينهم، إلا أن (رويبضة) العلم السياسي لجيل الدعاة، يسببون الفتن، ويخلطون الأولويات، ويزرعون الضغائن، ويفوتون المصالح!

وللأسف فإن فكرة (الرأي والرأي الآخر) في الطرح السياسي لجيل الدعاة قد تكون غير مجدية!

فالإطلاع السريع والمشوش لمجريات الأحداث في الواقع السياسي، لا يعطي الصورة الكاملة والحقيقية لأبعاد القضايا.

وابتسار الكلمات السريعة في الحوارات واللقاءات وردود التصريحات يعطي انطباعاً ربما، لكنه لا يوضِّح جذر المشكلة، ولا أساس الخيط فيها، إلا من تكامل استيعابه من المصادر المهمة الأساسية لكل موضوع.

ومن نافلة القول أن نبين أن عملية الفكر السياسي لا تتعلق بمشهد الحروب والكوارث والانتخابات والسلطة وما سوى ذلك. بل إنها تتعلق بفقه المصالح والمكتسبات وإدارة الأزمات والأولويات في كل قطر، وعلى صعيد التمثيل الشخصي في بعض المشاهد والمواقع المؤثرة أحياناً.

وهذا يتطلب ميلاناً للقراءة الجادة في التاريخ السياسي، وسير رجالات السياسة، الذين قد يكون منهم العلماء والفقهاء والمصلحون!

والبدء بتلخيص وتوظيف هذه السير بين يدي الناشئة، لبدء استيعاب الفكر السياسي بطريقة صحيحة، ثم القيام بخطوات عملية حقيقية، تربط بين الوقائع، والوثائق، واللقاءات، ولربما تنتهي بالحِكم القصيرة، والأمثال المعبِّرة!

ولذا لابد أن يتنادى مسؤولوا الدعوة لإنشاء مراكز في الفكر السياسي المبني على أسس منهجية علمية عملية متقنة، بعيداً عن التسميات الكبيرة التي يمثلها أفراد لهم أيدلوجياتهم، أو مواقفهم، أو مكتسباتهم التي تطغى في التحليل مهما زعموا الحيادية.

وأن تكون هذه المراكز المسمَّاة بشكل مقنع مورداً للتحليل، ومرصداً للوثائق، ومقراً للتدريب، ومصدراً للكسب المعرفي.

المحكوم عليهم فكرياً

الفيلسوف «نيتشة» له عبارة جميلة ومعبِّرة يقول فيها: «نحن نبدع الفن كي لا نموت بسبب الواقع»!

إن الاهتمام بتصوير الواقع فوق أنه بيان للمنهجية المطلوبة للحكم على الموقف، فهو كذلك تعايش مع الحالة الإنسانية أمام ما تسمع وترى.

وأرى أن القرآن الكريم في نزوله منجماً بقصص وأخبار سابقة، وتوصيف لأحوال حادثة يعيشها من نزل عليهم القرآن، هو من أبدع وأعظم رسالات القرآن للناس.

إنهم كانوا يعيشون المواقف لحظة بلحظة، وتصوَّر لهم تفاصيلها في مشهد قرآني عجيب، ليصل بهم إلى التصور الصحيح.

هنا في القرآن نقرأ المنهج، ونقرأ المشهد الذي عاشه ذلك الجيل وهو يطبق المنهج.

وإذا كان النبي ﷺ يضرب الأمثال للصحابة، ويرسم بين أيديهم

الرسوم (الخطوط) المعبرة عن حياة الإنسان وما يحيط به، فإن ثمة حاجة ملحة اليوم لمشاركة الناس همومهم،وتصوير المشهد الذي يعيشونه، ورسم الملامح الصحيحة للموقف الذي يجب أن يتخذوه، أو يميلوا إليه.

إن المجتمع اليوم يمر بمراحل جذب غير عادية من الأفلام والمسلسلات والروايات والمجلات والمواقع الغنائية وجيش الإعلانات، والتي تشكل بمجموعها حالة تفاعل مستمر، وضغط يومي، وانصباغ فكري يحكم قبضته على الناس بشكل مذهل!

اليوم ونحن نقرأ أن فنانين حصلوا على الجنسيات التي يريدون، وتهدى إليهم مفاتيح أفخم سيارات الدنيا على أسرَّتهم في الفنادق، وتغذَّى أفكارهم بملايين الدولارات في بضعة فيديوكليبات، أو فيلم واحد، وينتقلون بطائرات خاصة، ويحيون عشرات الحفلات في الشهر الواحد، ما بين حفلات زفاف، وجلسات خاصة للكبراء، ومهرجانات ضخمة في شرق الدنيا وغربها وشمالها وجنوبها، مع تغطية مستمرة، كل ذلك يصب في عقل ووجدان الإنسان عكس ما كان يقوله «جوزيف برودسكي» : «إن كان الفن يعلم شيئاً للفنان فهو خصوصية الوضع الإنساني»!

ولذا فإنَّ بقيةً من رسائل وكتب وأشرطة ومحاضرات هادفة، لا تكاد تغطي جزء من مساحة الحاجة الفكرية والعاطفية للمسلم المعاصر اليوم!

نحن أمام أزمة حقيقية تمس تماسك الأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة.

نحن أمام اختراق للقوانين الإنسانية، فضلاً عن القيم الدينية.

لقد رأيت في تلفزيونات (السويد، والصين، وتركيا، وماليزيا) حرصهم على منع البرامج الخادشة للحياء، ثم الدين، وإلا بأي شيء نفسر هذا التوجه الصارم في السويد والصين؟!

في حين نجد تغول خطير وساحق للقيم في التلفزيونات العربية، وبتمويل عربي خليجي في الدرجة الأولى، ولولاه لما هزت امرأة جسدها في مصر أو لبنان!

وقد حدثني أحد كبار المخرجين في الأردن أنهم يعدون ـ في الوسط الفني ـ أحد الوجهاء الخليجيين من ملاك القنوات الغنائية المنحطة السبب الأكبر في فسادهم، وتجفيف الخير الذي فيهم!

ولا أدل على ذلك من نماذج من فيهم بقية حياء، من الذين يُخرجون الكليبات العارية ثم يذهبون إلى من يسمونه (مولانا الشيخ) ليقرأوا عليه القرآن تبركاً ورجاءً للمغفرة، كما ذكر صاحب كتاب (الصورة والجسد)!

إن المؤسسات الدعوية أمام (ورطة) قيمية حقيقية، وأمام قضية محكوم على أصحابها فكرياً وغيابياً من غير استشارة.

وأمامهم مشروع جهادي جديد (الجهاد المدني) كما هو تعبير د. القرضاوي. فهل من مشروع نهضوي إعلامي منافس، يرتكز على أسس الدين الحنيف، وقواعد الوسائل الواسعة والمنضبطة، وهل من حراك للحكم على هذا الواقع الذي سُحب من بين أيديهم، أم سيبقى الحال: حكماً غيابياً إلى أجل غير مسمى؟!!

المدارس الفكرية والمفارقات الدعوية

في كل عصر تتجدد الاهتمامات، وتتصدر جملة من المسائل الساحة حواراً ونقاشاً، وبناءً لآليات جديدة في العمل.

والمراقب المدقق للواقع الإسلامي المعاصر يجد أن قضية الفكر الإسلامي تصدرت وتشعبت، وتشتَّتتْ في آن واحد!

ومن خلال المؤتمرات والملتقيات والقراءات والمتابعات للبرامج المختلفة في الساحة الإسلامية، وجدتُ ملحظين مهمين في موضوع الفكر الإسلامي، هما:

أولاً: ما يتعلق بالمفكر.

ثانياً: ما يتعلق بالفكر.

فأما ما يتعلق بالمفكِّر:

فإن هذا المسمَّى حمَّال أوجه في توصيفه ومآله، فمن قائل: إن المفكر هو الذي يستطيع تحليل الواقع ويحسنُ توصيفه وتوظيفه، ومن

قائل: إن المفكر هو الذي يملك أدوات التحليل والمقارنة ويستطيع بمهارة الخروج بمفاهيم وآليات للنهوض أياً كان هذا النهوض، إلى من يقول: إن المفكر هو من يستنبط من فقه الواقع وعمق الثقافة قواعد كبرى ومفاهيم كلية جديدة يستفيد منها الفقيه والسياسي والإعلامي وغيرهم.

وقد تكون هذه التعريفات متفقاً عليها أو على أغلب مضامينها، مع وجود تعاريف أخرى مقاربة أو مخالفة، إلا أنَّ مجالات نظر المفكر باتت مفتوحةً بلا حدود!

فقد نجد مفكراً يتحدث في القضايا الشرعية الكبرى والصغرى ويناقش ويجادل، ويعقب تخطئة وتصويباً، بل وحتى تنظيراً لفهم شرعي متجدد، مع كونه لا يملك ربع الأدوات التي يملكها الفقيه في الاستنباط!. وفي المقابل قد نجد من أهل الشريعة من يفتي في النوازل السياسيةِ والاقتصادية والإعلامية دون امتلاك أدوات التحليل وملكة المقارنة ، إضافة إلى عمق المعرفة وطول الممارسة، وقد تقبل فتواه مباشرة لأن فيها صيغة الحلال والحرام، وعرض بعض الأدلة، وسرد بعض شواهد التاريخ، وحِكَم السلف الصالحين!

أما الإشكالية الأخرى التي تتعلق بالفكر:

هل الفكر شيء واحد؟ أم أن هناك فكراً إسلامياً واقتصادياً وسياسياً، ... وبالتالي ما هي مضامين الفكر وأدواته التي تتطلب التخصص، وتتيح لصاحبها أن يوصف بالمفكر المقتدر.

ثم ما هي البيئة المشرفة على منهج هذا الفكر وملامحه وضوابطه؟!

إنني مؤمن بأهمية الفكر كعلم، ودوره وأثره، ووجود المفكر كمتخصص وحاجتنا إليه. كما أني في الوقت نفسه ألحظ الخلل في التوصيف وعاقبة التفكير!

نعم يمكن للمفكر الذي يملكُ كل شروط المفكر ومقوماته أن يفكر في ميادين مختلفة بشرط أن يعرف بشكل مجمل مجالات الميدان الذي يتحدث عنه، ويطلع بشكل معمّق على قواعد ونصوص وآليات ومنهجيات هذا المجال، ونقبل بعض خطئه البشري في حدوده.

بينما الخلط الشديد اليوم هو في لبوس العباءة العامة (مفكر) والقفز على كل مراحل (الفكر)!

ومن وراء هذا الخلط تتم التطبيقات الخاطئة والمفارقات الدعوية الغريبة في الأحكام المتسلقة على الشرع بالتصور الإسلامي العام مقاصداً ومراعاة للمصالح والمآلات، والتستر وراء جملة محددة من النصوص، والاكتفاء بذكر الخلاف القديم بين أبناء الأمة في مسائل متعددة ولو في إطار ضيق، ليفسح للفكر الحر أن ينطلق، وأن يؤسس منهجاً جديداً أو حتى انقلاباً جديداً!

وفي المآل: ينبغي أن يكون الفكر مادة لها منهجها ورسمها وأدواتها، وأن يكون للمفكر مجاله وتخصصه الذي لا يعدوه!

أين الدراسات النفسية والفلسفية؟!

قد يظن البعض أنه لا يصلح أن يُطرح هذا السؤال على عامة القراء، أو جمهور المثقفين، إنما هو للنخبة، أو لمن لهم فضول نظر ووقت للتعمق والاهتمام في هذه الموضوعات!.

والحقيقة أن استطلاعًا ماسحًا لنخب المثقفين في المجال الإسلامي سيكشف بلا كبير عناء، افتقار ساحات حوارهم، ومن ثمَّ بنائهم المعرفي، ونظرهم المستقبلي لآفاق الحياة، ومن هم في هذه الحياة.

إن التجول في حقل الدراسات النفسية والفلسفية مطلب أولي البصيرة والوعي والتأثير والذائقة الإنسانية.

لا أبالغ إن قلت: إن الحروب والكوارث والنزاعات الإنسانية كثيرًا ما يحمل وزرها الجهلة بالدراسات النفسية والفلسفية، فضلًا عن الدينية، وإلا فما هو تفسير تحيّز عمالقة من المفكرين والأدباء الغربيين للوقوف مع أهل الإسلام، وحماية مقدراتهم ومقدساتهم،

وهم لا يملكون المعرفة الكافية عن عظمة الدين، وما يحمله بين جوانحه من قيم وأخلاق، تُسعد بني الإنسان؟!.

إنني وأنا أقرأ بتمعن وطول نفس، فيما كتبه الإمام الغزالي من نفائس الكتب، وهو من المتقدمين، وما خطته يد الأستاذ عباس محمود العقاد في موسوعة أعماله من المتأخرين، أدركت الروابط المشتركة بينهما في النبوغ، وبعد النظر، نتيجة التعمق في الدراسات النفسية والفلسفية، وإن كان الأول قد أتى بنظرات شرعية عميقة، وذات أبعاد غير مسبوقة، تجاوزت الزمان، في حين تجلى الآخر في تحليلات الواقع، وتفكيك تجاعيد وتراكيب التاريخ بحكم تأخره، وإن كان لا يعدو أن يكون تلميذًا نجيبًا عند الغزالي، حتى إنه سأل في كتابه (الفلسفة الإسلامية) سؤالًا ينم عن تفكيره الفلسفي، وعلاقة التلميذ بأستاذه: «لو سئل الغزالي: هل أنت فيلسوف؟، فما عسى أن يكون جوابه يا ترى؟!».

إن إمتلاك أدوات التفكير والفلسفة، والتحليل النفسي في دوائرها العامة، لا في أدوارها الوظيفية، لها تأثير جوهري في فهم الإسلام، ومجالات النظر في مستقبله، شرقًا وغربًا!.

لقد صبغ العقلاء حياتهم بهذه الدراسات، وأسهمت في تشكيل عقولهم ونفوسهم، ولكنهم أخطأوا حين جنحوا بهذه الدراسات في المجالس الخاصة؛ التي يحتاجها أبناء الجيل، بعيدًا عن تجريداتها المعقدة، وإيصالها من غير شوائب أو حواشٍ!.

وكم يكون من المفيد أن تقام الدروات والملتقيات للعناية بهذه الدراسات، وتقريبها بين يدَي النشئ، وتكريم أعلامها، فإنهم خط الدفاع الموازي لعلماء الشريعة، في دورهم الأخلاقي، وحتى حراكهم النضالي!.

بين المصير الفردي والمصير المشترك

عندما خلق المولى الجليل الإنسان أمره بتكاليف فردية، وحمَّله نتائج ما يصل إليه على مستوى المعارف والحقائق الأخروية، لا على مستوى الحقائق المادية ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (مريم: ٨٠).

كما أمره بمسئولية منضبطة تجاه الآخرين، وهذه المسئولية تتدرج واجباتها صعودًا وهبوطاً، كالأهل والأبناء والجيران والمحتاجين والمظلومين.

والإسلام ـ وهو يدعو إلى هذه التكاليف على المستوى الفردي والجماعي ـ وضع الأسس القويمة والدعائم المتينة لحدود المسئولية. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) و﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥) و﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ (الشورى: ٤٨) و﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ﴾ (القصص: ٧٧).

وأوضح الإسلام لبني البشر محطات الحياة، وما سيكون فيها من عقبات، وما تحتاجه من تضحيات، وما تستلزمه من مطالب.

وفي ظل هذه الحقائق المثبتة في القرآن ووقائع الحياة، تتسلل بشريات النصر، وبلاسم السعادة، وفيوض الرحمة والطمأنينة.

وهذه النتائج المفرحة، وآثارها المُبْهجة، لا تتأتّى لنفس وضيعة، محبة للدَّعة، مؤثرة للذلة، ناكصة عن المواجهة!.

إن النظر لجماليات الحياة ليس في متع زائلة، ومركوبات تافهة، إنما هي في الراحة التي تعقب الكفاح، والبسمة التي تعقب آلام المحتاج الذي سُدّت حاجته، وكلمة الحق أمام من سُلبت حريته ونضاله.

إن أمام كل فرد مسئولية ذاتية أمام الله في حضور قلبه، وصفاء روحه، وصنعه للمعروف، وبره بأهله، ووجوده حيث يحب الله.

ثم إنه أمام مسئولية جماعية لا خيار له في بعضها، من مناصرة أمته المنهوبة، المثقلة بالجهل والتناحر، وهي مسئولية تحسنها قدراته، وتتطلع إليها همته، يرفع بها مستوى القوة في الأمة، ويؤدي الحد الأدنى لرفع البلاء ما استطاع.

إن المسلم الحصيف وهو ينظر إلى دوره على مستواه الفردي والجماعي، يركّز على المصير المشترك؛ الذي يربط بين أجناس

المجتمع، ليستفيد منهم ويفيدهم نحو روابط توسع من دوائر العمل لخدمة هذا الدين العظيم.

إن الدور الحضاري المأمول في رسائل الدعوة اليوم هو في الخروج من دائرة الشتم والتكبيت والاتهام والضعف والتسيب، والالتقاء حول برامج التخطيط والمستقبل العريض.

ولا نريد ونحن ندعو للعيش المشترك، والمناصرة في الحق المشترك، والنظر في المصير المشترك، أن نرسم صورة كاملة، في عمل واحد، وخطة واحدة، إنما يكفي أن نقرر أننا كبنية واحدة في جسم واحد، تعمل الأجزاء بموجب ذلك وفق وظائفها الخاصة، وتتوحد في الرؤى المصيرية المشتركة، وأن تكون أحلامنا ـ على أقل تقدير ـ مشتركة، طالما أنها نابعة من نفس الجسم!.

على أن تكون هذه الأحلام الجميلة، كحال مجنون ليلى؛ الذي تخيل ظبية وقعت في شراكه أنها ليلى، فأطلقها وهو يقول:

أيا شِبه ليلى: لا تراعي فإنني لكِ اليومَ من وحشيةٍ لصديقُ
أقول وقد أطلقْتُها من وِثاقِها لأنت لَلَيلى ما حييتُ طليقُ
فعيناكِ عيناها وجيدُك جيدها سوى أن عظم الساق منك دقيقُ

فلنجرب السعي لصالح مصيرنا الإنساني المشترك ولو بالخيال، فأحلام اليوم حقائق الغد!!.

فقه الوقاحة..
الهروب من المعلوم إلى المعلوم!

قديماً كان العرب يتحدثون وفق مبادئهم واستراتيجياتهم الخاصة بشكل واضح وصريح ومعلن، نعم قد يكون في الرؤية غبشاً، لكنه في المآل صريح ومنسجم مع مبادئهم المعلنة.

وفي عصر العرب اليوم صورة مشوهة عن ذلك الواقع الجاهلي الكالح، إنها صورة واضحة غير صريحة، وإن كان الطرفان يتفقان في إعلان النتائج!

عرب الجاهلية يتكلمون وفق المبادئ الصارمة التي يعتقدونها وافقت العقل والفطرة والإنسانية أم ضربت بكل ذلك عرض الحائط!

أما مجموعة عرب الشانزليزيه ومنتجعات سويسرا، والأبراج العاجية والمسطحات المائية، هنا وهناك، ممن يحملون عقولهم وحواشيهم وأرصدة بنوكهم معهم فإنهم يتكلمون بأيدلوجية لخصها

وزير الداخلية الفرنسي عند افتتاحه المسجد الكبير بباريس (١٩٩٣م) بقوله: عندنا مسلمو فرنسا، ومسلمون في فرنسا!

وصدق الرجل، فهو وزير داخلية، ويعلم أحوال المسلمين الداخلية جيداً، واختار أن يقول ذلك في مسجد المسلمين وأمام المصلين!!

ولعل تلك العبارة لخصها شاعر الإنسانية سليم عبدالقادر عندما قال:

إن تبتدر يوماً غاية لمهزلة تلقى السوابق منَّا والمصلينا!

وإذا كانت هذه المهزلة من المصلين، فإنهم قطعاً ليسوا ممن تحققت فيهم المعادلة القرآنية ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

إذ ماذا يمكن أن نفسر قول وجيه عربي توضع في قنواته كل ألوان الطيف، من رقة الرومانسية إلى جنونها: أنا أضع ذلك في قنواتي، من باب المصلحة حتى لا يتجه الناس إلى ما هو أسوأ؟!

ثم بماذا نعلِّق على قول وجيه عربي آخر: لا أترك الصلاة أبداً، ونقدم كل ما يمتع المشاهد العربي. وقنواته لا تهدأ حتى في رمضان عن كل لقطات السخونة؟!

وماذا نقول عن كل من يلعب باليوروات والدولارات والريالات في البنوك الربوية، والبورصات القمارية، ثم يقول: إن بنوكنا تدعم الأعمال الخيرية داخلياً وخارجياً؟!

ولو أن كل منهم ستر خيبته لهان الأمر، ولكنه لا يقبل أن يمضي في الدرب لوحده، دون أن يكون له تنظير وأعوان وأتباع ومشاهدين ومعجبين ومتابعين ومهتمين ومقلدين!

والأمرُّ من هذا كله أن يجد هؤلاء ممن يضعون لحىً خفيفة أو كثيفة، وممن يحملون شهادة شرعية من أي جامعة أو حتى وكالة كانت، ليصوروا لهم كل خطوات الخسة التي يقومون بها، أنها هي الطريق الوحيد في عصر اليوم لكسب الناس، والنفع العام، ومساندة الجمهور العريض، فالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية لا تتقبل إلا شخصيات يضربون على وتر القمصان الخفيفة، واللقطات الرقيقة!

إي واللّه هكذا يفكرون، وهكذا يخططون!!

وقد حكى لي صديق أنه جلس مع أحد هؤلاء الوجهاء في سفينة ابن زعيم عربي، وكان يُعرض فيها كل البرامج التي ستقدم في قناة هذا الوجيه، والشيكات تنتظر التوقيع بعد المشاهدة، وهي من طراز مشكلات الحب التي تبدأ ولا تنتهي بكل اللغات العربية والأجنبية والعثمانية!!

إن هؤلاء وهم يفعلون كل تلك الأفاعيل البغيضة لصالح المواطنين في الوطن العربي والإسلامي، إنما يهربون من المعلوم يقيناً عندهم من الحرام البيِّن طالما أنهم يُقرأ عليهم القرآن في الصلوات كما

ينقل عنهم، إلى المعلوم من التمركز حول الأنثى كما هي عبارة د. المسيري رَحِمَهُ اللَّهُ!

لقد غدا كل واحد من هؤلاء الوجهاء العرب فقيهاً في الوقاحة ينظِّر لها، ويروِّج لفعالياتها، كأن أحلامهم وهمومهم وأفكارهم هنا وهناك يغذيها ابن سبأ!

يا هموماً شـرَدَتْ وافترقَتْ خلفهم تطلُبُهم أيـدي سَبا

ولو أخذنا ما روي مرفوعاً، والصحيح موقوفاً ومنقولاً عن عدد من الصحابة والتابعين «صنفان إذا صلحا صلح الناس العلماء والأمراء».

لوجدنا أن حالنا إن أيقنا بتخلفنا، وآمنا بصحة الأثر ومآله، فنحن في برنامج خيبتنا نكوى من العلماء والأمراء!

أما العلماء.. فيكفيهم الإجماع السكوتي على دحرجة الأمة دولة بعد دولة في كماشة أعداء الدين والعروبة، والسعي للملمة الوحدة الوطنية في بلدانهم على نظام غوار (حارة كل مين إيدو ألو)، وعلى مقطوعة (أحمد مطر):

وطني ثوب مرقع.. كل جزء فيه مصنوع بمصنع!

صنف العلماء هذا، ليس في قاموسه الشجاعة لقول كلمة مقاومة شريفة، أو جهاد صحيح، لكنه مستعد أن يتكلم فقط عن المقاومة غير الشريفة والتطرف غير الصحيح!

وأما صنف الأمراء فتعرفهم بسيماهم، في تمجيد للهو والعبث الأخلاقي والسرقة العامة، والأنانية المنتفخة، والوجه الخائب.

والأمراء بما تحويه دلالة هذه الكلمة من إيحاء مباشر، أو اشتراك لفظي غير مباشر، فهم أصحاب المال والسلطة المروجين لفقه الوقاحة.

وهذه الحقيقة الإسلامية العربية الثابتة لسنا المتفردين في تجليتها، بل حتى فلاسفة الغرب شاركونا في إجلائها، كما قال (فوكو): السلطة تحكم المعرفة!!

وهذا حق، لأن الفكر الحقيقي، والنظريات والدساتير ستفقد قوتها وفعاليتها، وتتحول إلى نظريات بشكل مخفَّف ليِّن، كما يقول (إدوارد سعيد) في نظريته (نظرية التجوال).

ورحم الله زماناً كان يروي الراوي فيه: «أن نعيمان أو ابن نعيمان صاحب رسول الله ﷺ أُتي به وهو سكران، فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ، وأمر من في البيت أن يضربوه بالجريد والنعال فكنت ممن ضربه!».

وما رواه أبو هريرة عن رجل شرب الخمر، فقال عليه الصلاة والسلام: «اضربوه. قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله!، قال: لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان». والحديثان في البخاري.

ويظهر أن إعانة الشيطان في زمن الوقاحة مفروضة علينا في كل مكان!!

كما يبدو أن (فقه الوقاحة) سيتخصص فيه مفكرون لتحليل مناهجه الجديدة، طالما أحدث الناس من فجور على حد تعبير عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ!

من يحدد قضايانا المصيرية؟

لأول مرة أحس أن الموضوع يسير في اتجاه ما أخبر عنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما عرضت له بعض القضايا، فعلق عليها: إنها تحتاج إلى مشورة أهل بدر!

وإذا كان أهل بدر من المفكرين والعلماء والخبراء وأهل الرأي والحنكة والحكمة كانوا يعيشون في بيئة متغيراتها محدودة، ولقياهم ميسَّر، فأظن أنه الحالة هنا مختلفة تماماً، لطبيعة الزمان، وطبيعة تكوين الأشخاص في هذا الزمن المعقَّد!

بعد سقوط الخلافة العثمانية نشط مجموعة من العلماء لإعادة دور الخلافة، في حين اعترض على هذا الطلب عدد من المشايخ مثل الشيخ علي عبدالرازق في (أصول الحكم)، وكذا طه حسين في (الشعر الجاهلي)، ورغم أن الردود على المعترضين بدت قوية من أمثال رد الشيخين (محمد الخضر حسين) و(محمد نجيب المطيعي)، لكن السؤال المحيِّر والذي لم نجد له جواباً حينها، هو من ذا الذي سيكون البديل للخلافة، هل هو (الملك فاروق) أم

(الشريف حسين) كما اقترحه العلماء آنذاك؟!!

واليوم وبعد عقود ليست بالطويلة نجد أجوبة واضحة وقوية تعتبر الحديث عن الخلافة حديث عن الخيال، أو أن التخطيط الاستراتيجي المرحلي لإعادتها ضرب من الوهم وتخبط في الفهم، وضياع للعمر، وحرق للأولويات، كما عبرَّ عن هذا بوضوح علماء أكابر ومفكرين متقدمين في الأمة اليوم أمثال (د. محمد سليم العوَّا، ود. أحمد الريسوني، .. وسواهم).

إذاً ومرة أخرى ما هي القضايا المصيرية التي يجب أن نتجه لها، اهتماماً، ومشاركة، ودعماً، وتأييداً، ورعاية، وإعداداً، قبل أن نضرب في الوهم، أو نتخبط في الفهم؟

هل ثمة اتحاد أو هيئة أو مؤسسة أو منظمة إسلامية ما ستحدد هذه القضايا المصيرية على مستوى الأمة الإسلامية والعربية؟

وهل تملك تلك الجهات أياً كانت الآليات والخطط والطرق التي ستدير بها وسائل وردات فعل المتعاونين والمتفاعلين مع المشاريع المطلوبة أمام هذه القضايا المصيرية؟

كل ما أتمناه أن لا تكون هذه القضايا المصيرية عبارة عن أفكار مصاغة على حبر في ورق لا أكثر!

بمعنى أنها أفكار ونظرات يحدد بها صاحبها أو القائم على جهة إسلامية ما الأولويات نظرياً، دون مراعاة للواقع والبيئة والحال لمن

سيقومون بإدارة المشروع الإصلاحي، والاتجاه المباشر للحسم في هذه القضية المصيرية.

اعتقد أن ثمة متغيرات متعددة، وأولويات متجددة، ومطالب تنموية متطورة في كل قطر لها أثر في تحقيق المرجو من التركيز على القضايا المصيرية المحددة.

أخشى ما أخشاه أن نفكر طويلاً في الفرص والنتائج والآثار، ونستغرق في وصفها أكثر من اللازم، ونترك السبب الحقيقي من وجوهه المختلفة الذي هو الأمر المباشر مما يجب الالتفاف إليه.

إن السؤال حول (أولوية القضايا المصيرية) سؤال محيّر وكبير، ومن الطبيعي أن نجد تبايناً كبيراً ربما في النظرات نحوه.

وفي اعتقادي أن هذا الأمر متوقع نتيجة لأمرين:

١ـ إغراق المتحدثين أو الكاتبين في قضايا نظرية غير مدروسة بعمق.

٢ـ إغفال جوانب الأسباب أو عدم المشاركة الميدانية لتحقيق المطلوب الذي يصب في التركيز على القضية المصيرية المحددة.

ونتيجة لهذا الخلط نجد أن هناك الكثير وللأسف ممن يتكلمون في حين نجد أن القليل هم الذين يعملون، كما أننا نجد أن الكثير ممن يطالبون بالاهتمام في القضايا الكبرى وينظِّرون لها بتشاؤم،

في حين نجد أن القليل ممن يعملون في اتجاهات واضحة ورؤى مركزة، بخطوات عملية هادئة وواثقة تصب في تحقيق الأهداف المرسومة للنهوض بالقضايا المصيرية المهمة.

إن هناك ثغرات بل وثغرات كبيرة جداً في تحديد هذه القضايا المصيرية الكبرى التي نشغل بها أفراد الأمة، كما أن هناك ثغرات في تحديد آليات التعامل الجماهيري معها، هذا مع وجود أكبر ثغرة في الانقسام حول تحديد هذه القضايا الأهم للأمة ولكل قطر في عصر متغير، ومتسارع!!

هنا لا بد في اعتقادي أن يبرز دور العلماء والرواد والتيارات والمؤسسات المدنية ثقافية أو حقوقية في التعاضد لتحقيق رؤى مشتركة وواقعية وعملية كل في مجاله.

الفصل الثاني

نحو تجديد الدعوة

أخذ الأجور في العمل الدعوي

لا غرو أن تختلط المفاهيم في ميادين العمل المادي، وإن كانت تحت ظلال العمل الدعوي!.

والناظر لكتب الفقه الإسلامي يجد أن الخلاف كان محدودًا في آحاد المسائل، كإقراء القرآن الكريم، وتعليم الدين.

وفي الزمن القديم كان السلف الصالح يُغْنون بعضهم بعضًا ماليًا، كما أنهم كانوا يعيشون ـ في الأعمّ الأغلب ـ حالة متواضعة طبيعتها الزهد الذي به عُرفوا.

فالإمام مالك بن أنس ـ إمام دار الهجرة ـ كان يقول بصراحة لتلاميذه: والله لولا مال أبي حنيفة ما جلسنا لكم على هذا الكرسي!.

إنه باختصار اعتراف وإقرار بأهمية تسخير المال للتفرغ للتعليم، في ظل متطلبات الحياة.

وفي موقف طريف لأحد السلف رؤي يبيع ويشتري بعض الخضروات

في السوق، فقال له بعض الطلاب: لو انصرفت يا إمام للبحث في المسائل لكسبنا نحن الوقت، واستثمرنا ما ستمليه علينا، فردّ على البديهة قائلًا:

نزولي إلى السوق أبيع وأشتري دليل على أنَّ الأنام رقود

إن مطالبة العالم أو الشيخ أن يتفرغ للعلم، ليفيد الدارسين والباحثين، من غير أن تغطَّى حاجته الأساسية ومتطلباته الأسرية، أمر مضحك!.

وفي تأمّل وافٍ لسيرة النبي ﷺ، في جانب التعامل المادي، نلحظ نقاطًا مهمة، ومنها:

١ـ تأصيل مبدأ الدعوة عبر الاحتساب إلى الله (تعالى).

٢ـ مراعاة العرف العام فيما اعتاده الناس من مادِّيات الحياة التي لا تتعارض مع تعليم الناس الدين، كما فعل النبي ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه، وقال له عند ركوب الدابة: بالثمن!!.

ويمكن أن نخلص مما سبق إلى:

١ـ يجب أن يكون التعليم لوجه الله، أيًّا كان هذا العلم، طالما أنه مما ينفع الناس في الدين، ويسعى بهم نحو النهضة لصالح الأمة.

٢ـ أخذ الأجر على التعليم إنما يكون على الجهد المبذول، والوسائل المستخدمة، وهو مطلوب.

فمن رقى المريض في عهد النبي ﷺ أخذ بعض الأجر، وأقرّه النبي ﷺ على ما فعل، وأكل مما أخذه الصحابي من طعام، وكان هذا الأجر جزاءً وعطاءً على خدمة قدّمها، فكافأه الناس عليها، ولم يكن أجرًا مشروطًا، قبل نفع الناس!!.

٣- إن الأجر على قيمة الجهد والوسائل المستخدمة يجب أن يراعى فيه العرف، ومصلحة الناس، لا إمساك العلم، وتقتيره على أمة محمد ﷺ.

لذا فإن من أكبر الأخطاء في هذا الموضوع: عدم التفريق بين المكافأة على الجهد فيما تعارف الناس عليه من أداء وظيفيّ، وبين الاحتساب لعمل خيري عام.

فمن عمل في مجال خيري وله مال من جهة أخرى، فاحتسابه مما ينال به صاحبه القربى والأجر.

ومن لم يكن له دخل آخر، أو له دخل ولكنّه محدود، وبادر بالعمل في المجال الخيري، فإنه مأجور على اتجاهه لهذا العمل، ووضع خبرته فيه، والمكافأة أو الراتب الذي يناله هو جزاء أو مكافأة على الجهد الطبيعيّ الذي يقوم به.

والمؤمن الواعي العارف بالدين وبالله لو طُلب لخدمة عمل خيري،

كاستشارة عابرة، أو اجتماع لخدمة عامة يشارك فيها غيره، فإن هذا من واجباته، ومن الزكاة المفروضة عليه!.

أما الاجتماعات واللقاءات المتعلقة بالدورات التي تحوي وسائل عدة، ويبذل فيها جهد كبير، فلا أقل من المكافأة العرفية.

ويظهر خطأ كبير ومظهر غير مُرضٍ عندما يحوِّل بعض الدعاة كلَّ أوقاتهم وخبراتهم وأعمالهم إلى شركات تجارية!، فينالون على المحاضرات والدروس أجرًا، ويغيّرون مسمى المحاضرات إلى دورات، فيشترطون من الشروط الصعبة في التنقل والسكن والضيافة ما لا يطلبه علية القوم!.

فالأصل في التعليم الديني عدم اشتراط المال، بل عدم جواز حظر العلم وأحكام الدين إلا بالمال.

وأما المكافأة فشيء آخر!.

وكذا إن كانت المؤسسة تجارية تعمل في عمل ديني فالأصل فيها التفاوض المادي، أو الاحتساب ممن فتح الله عليهم من بركاته.

كأن تكون محطة تلفازيّة، أو مجلة، أو مركز تدريب، وما سوى ذلك، فتسعى تلك الجهات لتقديم الدعاة والعلماء في برامجها ومؤسساتها لجلب الجمهور، وتأكيد أصالتها، فهنا يسوغ التفاوض المالي.

وثمة ما ينبغي أن نؤكد عليه، أن المشاركة في مصالح الدعوة والأمة، كالانتخابات وسواها، هو واجب أو مستحب ـ حسب المقام ـ، **وإن غابت أدوار الدعاة غابت الحياة!!.**

الاستثمار الأمثل

هناك معايير لا أدري لماذا نغفلها عندما نتعامل في ظلال العمل الدعوي عبر ساحاته المختلفة؟

إن مسألة الاحتساب والوعظ والإرشاد والأمر النهي ليست هي كل محاور الدعوة.

وفي المقابل فإن وسائل تحريك العمل الدعوي عبر أنشطته المختلفة ليست هي ممكنة بالممارسات الدعوية من الرحلات والخطب والمجلات والدروس فحسب!

علينا أولاً أن نفهم ونتذكر أن الدعوة إلى الله هي البلاغ على منهاج القرآن والسنة بالحكمة والموعظة الحسنة.

وأن الحكمة قد تقتضي السلم، وقد تقتضي الحرب، وقد تقتضي المصالحة، وقد تقتضي المقاومة.

وأن الحكمة تتطلب المشورة والرأي، والمنعة والبصيرة. وإلا لكانت الحكمة ميتة باهتة، تدور حيث الأحكام المبثوثة في آلاف الهوامش، وعلى ألسنة ملايين الناس في الأمثال والحكم!

(فالحكمة) التركية اليوم، لها رونق وتأثير، غير حكمة كذا وكذا من الدول العربية والإسلامية الكبيرة والصغيرة!

(والحكمة) من كبير العائلة وشيخ القبيلة وأستاذ الجيل، تقع موقعاً لا يوازيه قول من يبحث عن تصفيق الجماهير، ويضخ ملابسه بأجود الطيب، ويحف حوله المشاهير من هنا وهناك!

ولأن لغة العصر مختلفة، ومساحات التأثير متجددة، فإن على الدعاة القراءة الواعية والمتأنية لمجريات ما حولهم، واستخدام (الحكمة) لاستثمار المشروع الأمثل في هذا العصر!

إن المناقصات التجارية الكبرى لا ترسو على الضعاف والمتكلمين، ولا تعطى للشعراء ولا لخطباء الحماسة!

والمفاوضات لا توضع على طاولات رؤوساء التحرير، وكتاب المديح، وأصحاب الدعايات!

التأثير اليوم يمر بسياسات مختلفة، وفي إطارات مختلفة.

فالتأثير الاجتماعي، يتطلب قوة مالية، في مشاريع كالصحافة والمجلات السيارة، ومواقع الإنترنت المفتوحة، والشركات التجارية ذات النفع العام.

والتأثير السياسي المحلي، يتطلب علاقات متينة، ودورات وخبرات عظيمة، ونفوذ متنوع.

والتأثير الإعلامي، يتطلب مشاركة مميزة وفاعلة في الوسائل الإعلامية المتطورة، والحضور المتقن والمتحرك في الأوساط، والدخول في العوالم التي تتجدد وتتشكل فيها التكتلات.

إنه وباختصار، لن يكون الاستثمار الأمثل صحيحاً، مالم يتم مثلث: التركيز، والتدريب، والإنتاج.

الانتماء الدعوي

الورود الجميلة التي نأنس بشمِّ رائحتها، أو نقطفها لنُظهرها على ملابسنا، أو نشتريها لنُهدِيَها لحبيب لنا، لها مسار خاص قبل أن تعرض لنا.

إنها تمرّ بدورة حياتيّة!.

تطلع في الربيع، وتختفي في الخريف، وتذبل في الصيف، وتحزن في الشتاء.

تعاني الرياح، وتقلّبات التربة، وقلّة الأمطار.

وتلقى الأماني، عندما يغرد بجوارها العصفور، ويشم عبقها الصغير والكبير، والغني والفقير، وتتمايل القلوب معها كلما مالت مع نسمة الهواء اللطيف!.

إنها في كل مراحلها المحزنة والمبهجة لا يمكن أن تتنكّر لبستانها، أو ساقيها، أو أحبابها من حولها.

والورود هم الدعاة، والبساتين هي واحاتهم!.

لقد جُبل الإنسان على الانتماء الفطري، الانتماء الذي لا تكلف فيه، الانتماء الذي أراده الإنسان، أم لم يُرده!.

الانتماء للعائلة، وللأهل، وللقبيلة، وللحي، وللنادي، وللوطن، وللأصحاب.

الانتماء العفوي، الفطري المشدود نحو ما يألفه الإنسان السوي.

والانتماء للدعوة أو للحركة أو للتيار أو للجماعة أو للمجموعة، انتماء إنسان لإنسان، وفكر لفكر، وهَمٌّ لهمٍّ.

إنه انتماء حياتي طبيعي، تألفه الحياة وتهواها!.

والانتماء لا يعني الرضا المطلق، والحب الكامل، والانصياع التام، والقبول المسلَّم!.

والانتماء لا يعني تقييد الحركة، والعواطف، والأفكار، والرؤى، والذات.

الانتماء ينبع من إحساس، ومحبة، ومطلب، ورغبة، وتفهّم، وعيش كريم.

الانتماء تكامل، وعطاء، وتبادل، وتوادّ، واستثمار.

الانتماء تجانس، وتصالح، وتناصح.

حال الانتماء كحال المسكن في حياة الإنسان بين أهله ومجتمعه ووطنه.

المسكن ليس هو كلّ شيء، ليس هو الأهل، وليس هو العيش الكريم، وليس هو الروح، وليس هو الوطن!.

المسكن هو رافد لطيب العيش في الحياة، بين أحضان الأهل، ومراتع الحي، ومفاخر الوطن.

لا يمكن أن تختصر المجتمع في المسكن، ولا الوطن في مكان العمل.

الانتماء هو الرئة التنفسية الصحية، فهو ليس معزولًا عن الجسم!.

والانتماء الدعوي يقترب ويبتعد، يقوى ويخف، حسب المطالب العمليَّة، والأوضاع النفسيَّة، والمستلزمات الحياتيَّة.

لكنّه في المآل يبقى الانتماء!.

ولو أخذنا مثالا على شخصية كبرى، مثل الشيخ يوسف القرضاوي؛ الذي كان عضوًا بارزًا في جماعة الإخوان المسلمين، بل رُشِّح ليكون مرشدَها العام، لكنه اعتذر، وصرَّح بأنَّ وقته وعمله صار لكلِّ المسلمين، وليس في حدود جماعة فحسب.

ومع ذلك لا يمر عام إلا وله كتاب أو لقاءات أو مجالس عن الإخوان، ودورهم، والمشاركة في أنشطتهم، والحديث بروحهم!.

ولأن الانتماء فعل عفوي، نابع عن وعي، فمنطقة العفو يجب أن تأخذ مجراها مع كل المنتمين، طالما عملوا وبقُوا في دائرة الانتماء الدعوي العام.

وختامًا: الإنسان لطالما أنه إنسان، فهو إمّا أنه منتمٍ، وإمّا أنه متحيز أو متحفزٌ للانتماء!.

التضحية

لو سألنا كل داعية: كم عدد الساعات التي بذلتها في يومك للدعوة؟.

كم إنسانًا دعوت، وموعظة نصحت، وبرنامجًا قدمت، ومشاركة نصرت، وطلابًا درَّست، ومقالًا كتبت، ومركزًا أسست، ومالًا دفعت، وجيلًا أصلحت، وأبناءً ربّيت، وفكرًا أشعتَ، وكتابًا وزَّعت، وتلامذة درَّبت، وتقنية اخترعت، وسلوكًا صالحًا أظهرت، وعملًا خيريًا أدَّيت، كم وكم وكم؟.

لوجدنا أنَّ الأجوبة محزنة وأليمة عند الكثير!.

هناك عشرات بل مئات المشاريع والأعمال والأفكار والرؤى؛ التي يمكن أن يقدمها الدعاة إلى الله، في كل مكان.

هناك حاجة ماسة للدعوة في الأوساط الشبابية والنسائية، بل في الجاليات، والدول المتعاطفة مع رسالة الإسلام، ومجالات العمل الخاصّ كأرباب العمالة، وأصحاب المطاعم، وسائقي السيارات،...

إنّ هؤلاء كلّهم لديهم أبناء، ولديهم علاقات يمكن أن تُسهِم في نصرة الحقّ والخير.

وما زلت أذكر قصة هزتني من الداخل، ونبَّهتني من غفلة تطرأ عليَّ!.

في هذه القصّة حكاية عامل في مطعم كثيرًا ما يأتي إلى الدار لجلب الطعام عند وجود الضيوف، ومع كثرة تكرار الزيارة، سألني: يا شيخ، أليس عندك شريط، أو كتيب، أو مصحف، فأنت رجل داعية، ويحضر في بيتك الدعاة؟!..

(يآ١١اه) كم هي قصة مؤثرة!..

إنَّ حياة الداعية في سلوكه الطيب وسمته الحسن، له أثر في محيط الناس.

إننا بحاجة أن نبذل قصارى ما نملك لنخرج الناس من الظلمات إلى النور، ونسعد بتوفيق الله، ونصر الأمة.

(التضحية أحد قوانين الحياة) عبارة تعلمتها، وآمنت بها.

إنه ليُحزِنني جدًا أن أجد مجموعة من شباب الدعوة يجلسون الساعات تلو الساعات على الإنترنت، والماسنجر، ويتقابلون في المطاعم، ولكنهم لا يصبرون للجلوس في اللقاءات للدعوة، ولا يتحملون مشقة السفر هنا وهناك للبلاغ، وتعريف الناس بالدين!.

ثم إنه ليُحزِنني أكثر ما يُحزِنني وأنا أقرأ في سير رجالات التاريخ العظام، وكيف فتحوا البلدان، ونصروا الدين، وقد تحمَّلوا في سبيل الله ما تحمَّلوا.

لقد سافرت من الدار البيضاء (المغرب) إلى مرَّاكش لأشاهد آثار معركة الزلاَّقة، التي كانت بقيادة القائد المسلم العظيم (يوسف ابن تاشفين)، إنني وأنا أقرأ قصة المعركة، وأعيش من داخلي حجم المعاناة، في وقت لم تكن فيه وسائل التنقل والراحة موجودة، أحزن من داخلي كيف ضحَّوا وبذلوا، وكيف تقاعسنا، بل كيف نسينا تاريخنا!.

لقد استغرقت الرحلة لموقعة الزلاَّقة عشر ساعات عبر وسائل مكيَّفة، بينما هم حملهم إيمانهم بالله، وتضحيتهم للأمَّة حتى صنعوا المجد، ووالله ثم والله لن تؤتي الدعوة ثمرتها إلا على يد رجال التضحية!.

التقويم الدعوي
من منصب سياسي

أنت قد تقرأ لداعيتين كبيرين مقالًا أو مقالات، عن زيارته لدولة عربية ما، فتجد البون الشاسع بين التعبيرين.

كما قد تسمع لخطابات الرجلين فتجد بينهما تفاوتًا في الطرح، نحو نفس الموضوع الذي يتكلَّمان فيه، فأحدهما يعرِّض بذكر فضائل القائمين على إحدى المشاريع، في الموضوع الذي يتكلم فيه، ويلمِّح بذكر الدولة التي تعتني به، في حين تجد الآخر (لا يهوِّب) تجاهها، ولا بأيِّ حرف!.

ويمكن أن نعرض سؤالًا بسيطًا هنا: هل يا ترى للمنصب الرسمي الذي يتقلده الداعية دور في نمطية التعبير الناشئ عن وعي وتفكير؟!.

والجواب نعم، بل بكل تأكيد.

فصاحب المنصب الرسمي وإن كان داعية لكنه يوازن بين الكلمات، ويراعي الكثير من الاعتبارات، وفي الوقت نفسه يتحدث

بوضوح عن أهم المنجزات، ويؤكد على الإيجابيات التي تقوم بها الدولة؛ التي يرأس منصبًا فيها، أو يزورها كوفد.

في حين تجد الآخر يسحب معه خلفيته المريرة عن هذه الدولة أو تلك، ويبرز مساوئها العظمى، وخطاياها الكبرى!.

إننا يمكن أن نتفهم وجهة نظر كلا الرجلين، بل خلفية كل منهما: النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية.

ولكن من أهم ما ينبغي أن نلفت له النظر ما يلي:

١ـ خطورة المبالغة في المديح، وتطويل الكلام عن أيَّة جهة كانت لأي داعية في منصب رسمي.

٢ـ السماح للداعية في أي منصب أن يوازن بين العبارات، وأن يقرر بنفسه ما يقدم ويؤخر، ويعرض ولا يعرض من آراء، طالما أن هناك مصالح عليا يسعى لتحقيقها، إذ ليس من المصلحة أن يتخذ أي خط لعنترية موهومة!.

٣ـ ليس مطلوبًا من كل الدعاة أن يواجهوا بسلاح الكلام كل الأنظمة، فهناك دعاة لهم أدوار خيرية وثقافية واجتماعية وإعلامية، يمكن أن تحقق أهدافًا عليا، تتطلب منهم عدم الدخول في خط مفتوح لتعرية أنظمة الشر والفساد.

٤ـ للانطباعات الشخصية من الداعية في منصب رسمي أو سياسي

أثر أكبر من كونه في غير منصب، ولذا لا بد من استيعاب الدلالات السياسية ومؤثرات النظرات والكلمات التي يدلي بها؛ لأنها تؤخذ من زاوية مختلفة.

٥- الحقيقة (عند غير المتوازن) تبدو ناقصة، وأحيانًا مشوِّهة، والقليل من ينتبه لذلك، ويعود للحق!!.

الخروج من الصف الدعوي

قديماً ربما كانت ظواهر الخروج من الصف الدعوي محددة ضمن التعلق بالدنيا، والوقوع في شبهة الالتحاق بسلك الدعاة، أو الخوف من التكاليف الحياتية أو الأمنية!

وقد تنادى عدد من كبار الدعاة للنصح والتوضيح، وفي مقدمة هؤلاء المرحوم بإذن الله الشيخ الدكتور: فتحي يكن في عدد من كتاباته، وكذا المرحوم بإذن الله الشيخ الدكتور: سيد نوح، وسواهم.

ولكننا اليوم وبعد وضوح مسرح العملية الدعوية، وتسجيل كل مسيرتها في كافة الوسائل العصرية، ما عاد جانب التوتر والخوف مقلقاً إلا للضعاف، كما أن الشُّبه صار الرد عليها سهلاً وفي متناول يد المطلع في كل ما يحيط به في التلفاز، والنت، وغير ذلك.

وأما الانشغال بالدنيا فهي أزمة عامة لمن ارتبكت أولوياته، وتخلخل سلم اهتماماته.

وأعتقد أنه في هذا العصر، هناك ظاهرة صارت سمة واضحة

للخارجين عن الصف الدعوي، ولكن قبل أن نذكرها، فلنبين بشكل مختصر ومركز سمة هذا الخروج ومعناه.

الخروج عن الصف الدعوي هو: عدم الميل والتحرج من العمل في مشاريع دعوية تتطلب عملاً تعاونياً جماعياً لنجاح فكرة ما.

هذا الحرج مغطًّى بعدم الرغبة في الالتزام بمواعيد ومطالب، وأداء الجهد في مشاريع تحقق رغبة الذات.

وفي مقابل ذلك قد يعمل هذا الصنف الدعوي مع مجموعة قليلة لتحقيق شيء يريده، في الوقت الذي يريده، بالكيفية التي يريدها، دون تكاليف، أو شعور بحرج المساءلة، الذي يتطلبه العمل التعاوني مع الغير.

وجل هؤلاء الأفاضل ينقصهم أمران:

١ ـ مشكلة ذاتية مع النفس أو العاملين في الصف الدعوي.
٢ـ مشكلة في استيعاب طبيعة العملية التغييرية في وسط الميدان.

أما المشكلة الأولى فحلها في عمق تربية الأفراد على قيم التعاون والتفاهم والتغيير بين المواقع، والتصارح المؤدب، والمجالسة المهذبة. مع التربية على حسن الاستماع، وحسن الحوار، وحسن التقبل، وحسن الاعتراض، ولكن كل ذلك لابد أن يكون بعيداً عن المخاصمة، والتشنج، والدخول بعقلية التنشئة الأسرية القاسية، والجبلاَّت الخُلقية العنيفة!

وإذا لم تكن ثمة تربية أصيلة ومحترمة ومنفتحة، فلا مجال لنهضة صغيرة أو كبيرة.

وأما المشكلة الثانية فحلها بحسن عرض الواقع الإسلامي الناجح كالنموذج التركي والماليزي في الصناعة والسياسة، والنموذج العلمي والدعوي في عشرات المراكز حول العالم، وقل مثل ذلك في التجارب النيابية في فلسطين والجزائر والمغرب والكويت، وسواها، مع بعض الإخفاقات.

إنه ليس هناك جانب مشرق دوماً، كما أنه ليس هناك جانب مظلم دوماً.

إن نجاح المشروعات مرهون بالقوة والتحالف، فهما الدواء لكل داء.

أعتقد أن تدريب الدعاة، وتوضيح آليات نجاح كل الفصائل (الإسلامية ـ القومية ـ الليبرالية ـ اللادينية) في مشروعاتها السياسية والإعلامية والاقتصادية، التي بنيت على القوة والتحالف مطلب أساسي ومُلح. **المطلوب هو البحث في القوة المالية والفكرية والعملية، والتحالف الكسبي الذي يتطلب عقلاً مفكراً، ومرونة نفسية.**

وإذا لم يقدر الدعاة على ذلك فيما بينهم، فكيف سيحققوا الكسب في بيئات مدنية، لا تعترف إلا بالسنن الكونية، والمستجدات الميدانية؟!

الخوف من العقبات الأمنية

الداعية إنسان في أصله!.

ولذا لا غرو أن يدبَّ بين جوانحه ـ بين الفينة والأخرى ـ الخوف الطبيعي.

لكن أن يكون هذا الخوف حاجزًا عن الخير، أو مسيطرًا على العقل، أو حجر عثرة، أو ما يسميه العامة (بُعبُعًا) في الطريق، فهذا ليس في حسِّ المؤمن، ولا يمكن أن يسكن خلاياه.

كنت أُحدث الكثير من إخواني الدعاة عند طرح طرف من هذا الموضوع، قائلًا: انظروا عبر التاريخ في مسيرة الدعاة الذين نصروا الأمة، ورفعوا من شأنها، ووقفوا أمام تيارات التغريب والتخريب، ها هم اليوم في المصاف الأولى في حياة الناس، وفي السلم الأول للنجاح، وهم المتقدمون عند الجماهير، والموثوقون في الفتاوى الدينية أو الاجتماعية أو حتى السياسية!.

المؤمن الواعي الحصيف لا يتسلَّل إليه الشيطان في أيَّة فتنة،

ينسج الشيطان خيوطها لتخويفه، أو إعاقته عن عمل، بل هو بصير بالأمور، مدرك لعواقبها.

لقد تتبَّعت تاريخيًا عددًا كبيرًا من الناجحين الدعاة والعلماء، ووجدت أن مسيرتهم لم تكن حافلة بالمتعة والمشي على الورد!.

بل وجدت الصعاب والمشاقَّ والآلام النفسية والجسدية غالبًا.

لكن في مقابل ذلك لم يخسروا دنياهم، بل ـ والله ـ إن الدنيا أتت إليهم وهي راغمة، ولم يخسروا الناس لأن الصدق تظهر دلائله، وإن حاول تشويهها المغرضون!.

ومع إيماني بهذا المعنى، ومعايشتي له، حدثني أحد شيوخي حديث القرآن عن الخوف، مما زاد يقيني، وأصَّل معناه عندي، ومما قال ـ حفظه الله ـ:

«إن الخوف الذي يصيب الإنسان ويعيقه عن الدعوة أنواع فنَّدها القرآن الكريم. وهي:

أولا: الخوف من أعداء الله، وما يمتلكونه من وسائل الإرعاب، وهذا الخوف ليس صحيحًا، بل هو مجرد وهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٧٥)، ومعنى يخوف أوليائه: يحاول أن يحيطهم بهالة من الخوف لعلكم تخافونهم، لكنَّ كيده ضعيف ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦).

ثم النوع الثاني من أنواع الخوف: الخوف على المصالح، فكثير من الناس قد أخذ موقعه في خريطة المجتمع، وله مكانة قد تبوَّأها، فلا يريد أن يفقد تلك المكانة، أو تلك الوظيفة، أو ذلك المال، أو ذلك المنصب، ومن هنا فهو خائف على ما أحرزه، لكن هذا الخوف ـ كذلك ـ ردَّه الله بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٢٨)، والعَيلة الفقر.

النوع الثالث من أنواع الخوف: الخوف من التشويه، فكثير من الناس لا يحاولون نصرة الدين؛ خوفًا من أن يكونوا عرضة لألسنة الناس، وأن تتكالب عليهم الألسنة، فيشوَّهوا بأنواع الألقاب المزرية، ويوصفوا بالنعوت المرعبة، لكن لا يتذكر هؤلاء أن الله ﷻ، المتصف بصفات الكمال، المنزه عن النقائص، زعم الناس له صاحبة وولدًا، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ (المائدة: ٦٤)، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ (آل عمران: ١٨١)، هل ضرَّ الله هذا التشويهُ شيئًا؟، ورسل الله الذين اصطفاهم الله من خلقه، وأكمل خلقهم وهو القادر على ذلك، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤)، مع ذلك ما منهم أحد إلا قيل فيه كذّاب، مجنون، ساحر، كاهن، طالب سلطة، ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الذاريات: ٥٣)، فهل ضرَّ الرسل هذا التشويه شيئًا؟، ما ضرَّهم.

وما نحن إلا حلقة صغيرة من سلسلة طويلة، فيها نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ، ومن على آثارهم من المقتدين، فكل نكبة أصابت حلقة من تلك الحلقات لا بد أن تصيب كل الحلقات، لكنها نكبات مباركة، فنكبة أصابت نوحًا أو أصابت إبراهيم، أو موسى، أو عيسى، أو محمدًا ﷺ مرحبًا بها وأهلا، هذه النكبات التي تصيب الإنسان على طريق الحق نكبات مباركة، أصابت من هو خير منا، ولسنا أكرم على الله منهم، فلذلك إذا أصابنا شيء منها فهي نعمة اختارنا الله بها، فأكثر الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

وكذلك من أنواع الخوف وهو الرابع: الخوف من التكاليف، فكثير من الناس لا يمنعهم من نصرة دين الله إلا أنه يخشى أن يتكلَّف بتكاليف وأعباء، وأن يُجهِد نفسه بأعمال يظنُّ نفسه في غنى عنها، أو أنه بالإمكان ألا يكلَّف نفسه ذلك العناء، لكن الواقع أنه قد باع نفسه وماله لله، وأنه بذلك لن تزداد تكاليفه، فليس الإنسان يملك إلا نفسه وماله، وقد باع ذلك لله ﷻ، فكيف يخشى من زيادة التكاليف بعد ذلك، إن هذا من غرور الشيطان للإنسان، يظن أنه إن سعى لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه فإن التكاليف عليه ستزداد، والأعباء ستتضاعف، والواقع خلاف ذلك، فكلما ازداد الإنسان تضحية في سبيل الله سهل عليه البذل، وازداد نشاطًا وأُهبة لنصرة دين الله، وما عليكم إلا أن تجرِّبوا ذلك، فإن الذين سبقوكم كلما ازداد أحدهم في العمر ازداد في التضحية.

هذا أبو طلحة الأنصاريّ ﷺ وقد زكّاه النبيّ ﷺ تزكية كبيرة، فأخبر أنّ صوته في الجيش خير من مئة أو من فئة، فعن أنس بن مالك، «**أنّ أبا طلحة، قرأ هذه الآية: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾** (التوبة: ٤١)، **فقال: استنفرنا الله، وأمرنا الله، واستنفرنا شيوخًا وشبابًا جهّزوني، فقال بنوه: يرحمك الله، إنّك قد غزوت على عهد النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر، ونحن نغزو عنك الآن، فغزا البحر، فمات، فطلبوا جزيرة يدفنونه فيها، فلم يقدروا عليه إلا بعد سبعة أيام، وما تغيّر**»[١].

إذن الخوف السلبي هو المعيق عن العمل والتقدم وهو الجُبْن بعينه، أما الخوف الذي يؤدي إلى الحذر المنطقي هو خطوة إيجابية في طريق العمل.

---

١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤٩٠/٤)، ذكر وفاة أبي طلحة، وقال الهيثمي في المجمع (٢٥٦/٤): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم (٤٣٥/٤) والبيهقي (٢١/٩) وابن أبي حاتم (٢٢٣/٢٥) وأبو يعلى في مسنده (٤٣٣/٧) رقم (٣٣١٩). وابن حبان (٧٣٠٧) من طرق عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس ﷺ، أنّ أبا طلحة ﷺ.. فذكره.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه».

الداعية الفالصو!

هناك قصة جميلة أُحب أن أرويها للناشئة، وأروِّي أجمل ما فيها من أبيات، والقصة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سمع أن رجلًا يغني بالشعر بعد خروجه من المسجد، فاستغرب عمر، وذهب ليتأكد مما قيل، ومما يقول الرجل!.

فأنشده الرجل هذه الأبيات التي غنَّاها:

وفـــؤاد كلَّما نبَّهته في ... مدى الهجران يبغي تعبي

لا أراه الدهر إلا لاهيًا ... في تماديه فقد برَّح بي

يا قرين السُّوء ما هذا الصِّبا ... فنيَ العمر كذا باللعب

وشباب بان مني فمضى ... قبل أن أقضِي منه مأربي

ما أُرجِّي بعده إلا الفنا ... ضيَّق الشيب عليَّ مطلبي

ويح نفسي لا أراها أبدًا ... في جميل ولا في أدب

نفسُ لا كنتِ ولا كان الهوى ... راقبي المولى وخافي وارهبي

فلما سمعها عمر أُعجِب بها، وطرب بمعانيها، ومشى وهو يردد باكيًا، (نفسٌ لا كنتِ ولا كان الهوى، راقبي المولى وخافي وارهبي)، ثم قال: من كان منكم مغنيًا فليغنِّ هكذا!.

وهنا يبحث إمام المسلمين وخليفتهم عن رجل ـ بعد الصلاة ـ خشي ألا تكون صلاته قد نهته عن الفحشاء والمنكر!.

وهذا الحرص منه ﷺ هو الدور التربوي الذي يقوم به القائد، ويحرص عليه الربانيون، حتى تـؤدِّي العبادات دورهـا، وتثمر في الحياة، كما يطلب الطبيب الناصح من المريض أن يأخذ علاجه، ويتركه مدَّة حتى يؤدِّي مفعوله، وتقوى لديه المناعة!.

ومسارعة التفقد هي ميزان المجتمع السليم، الذي يحافظ على القوى الكافية، ويطرد كل ما يشينها.

وفي دقَّة تثبُّت أمير المؤمنين، وما تلا ذلك من إقراره الكلام الجميل، دليل توازن ووعي، وتفهم ونفسية متعافية!

فآثار العبادة في الصلاة ظهرت على كلمات وألحان ذلك الرجل؛ حتى أبكت عمر ﷺ، وتركته مذهولًا!.

ثم إن أمير المؤمنين استهجن موقف الرجل من خلال ما نقله الناس واستنكروه، وحرص أن يبادر بنفسه لإبداء الموقف المناسب.

وهكذا هو الجيل المؤمن يحرص أحدهم على أخيه كما يحرص على نفسه، وأول ما يحرصون عليه عافية قلبه، وسلامة جوارحه.

والمجتمع الراشد وهو يقوم بهذا الدور يطرد الأدران والأوساخ التي تغطِّي الصورة الجميلة؛ التي يجب أن يكون عليها من اتصف وتشرَّف باسم (الداعية إلى الله)، وهو أعلى وسام يناله المؤمن ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥، ٤٦).

ومعدن الداعية المؤمن كالجوهرة الأصيلة، لا يضرُّها الغبار، أو رشُّ الماء، أو حتى دخولها في الطين، فهي تخرج من كلِّ ذلك صافية أنيقة، وإن مسَّها بعض الخدش!.

بينما الجوهرة الرخيصة التقليدية، تتحلّل سريعًا مع أول رشة ماء، وتصدِّي مع أول هبَّة رياح!.

والداعية كذلك مثلًا بمثل، سواء بسواء.

وأسوأ صورة لا نتمنى أن نراها، أو أن يتحدث الناس عنها، هي تلك الصورة الثانية، الصورة التقليدية التي تمثل (دعاة الفالصوا)!!.

دعاة الفالصو.. يمسكون جيوبهم وقت الإنفاق، ويقتِّرون وقت الصدقات ومشاركات الدعوة، ولكنهم ملحاحون أمام مطالبهم، متهورون أمام عروض السندات والأسهم!.

دعاة الفالصو.. رقيقون جدًا، حساسون جدًا، مرهفون جدًا، إنسانيّون جدًا، ولكنهم ليسوا أصحاب شهامة، أو نخوة، أو رجولة، أو تضحية في المواقف الصعبة!.

دعاة الفالصو.. (بيَّاعو كلام)!.

دعاة الفالصو.. (أصحاب مقالب)!.

أمَّا إنهم (بياعو كلام)، فهم مع (الخيل يا شقرا)، وحيث ألقت رحلها أم قشعم، فالمبادئ يمكن أن تتغيَّر، والمواقف يمكن أن تتلوَّن، والخُطب يمكن أن تتموَّج، كلُّ ذلك يكون لأنهم لا يعيشون مع الحرف الذي ينطقون به، فضلًا عن الكلمة!.

وكونهم (أصحاب مقالب)، فهم يعِدونك، ويؤكدون عليك الوعد، ويضعون في بطنك (بطيخ صيفي)، فإذا جدَّ الجِدُّ، واقتربت الساعة، أغلقوا جوَّالاتهم، ودخلوا في بيات شتوي!.

الداعية الفالصو.. (مـرَّة) مع السُنَّة، و(مـرَّة) البدعة، ويوم (ملتزم) ويوم (تايه)، ويوم في (درس)، ويوم في (سينما)!.

الداعية الفالصو.. مع جرايد الأخبار، وصور الفنانين والفنانات، ومع أية (هبقة) لجلسة شاي، وصحن فشار، وقِدر الضغط، وحفرة الحنيذ!.

الداعية الفالصو.. مدوان إذا (اقتنع)، ومخدَّة نوم إذا (غضِب)!

وشتان بين الذهب النفيس والذهب الفالصو!!

الدعوة الناعمة

مفرداتهم عن الحياة أكثر من مفرداتهم عن الآخرة!.

إنهم صنف من الدعاة يبحثون عن أسلوب الدعوة الليّنة، الدعوة التي تُسهِّل دخولهم لمجالس أصحاب الطبقات العليا، وما يدور في فلكهم، والسكوت عن فواحش وقاذورات الحكومات؛ التي تجلب في السياحة كل رخيص وهزيل ومدمر للأخلاق.

أصحاب الدعوة الناعمة يقرأون قشور الأفكار، وينظرون للطبقة الملساء لدى الأجهزة الحكومية!.

يحاول أصحاب الدعوة الناعمة أن يديروا كفَّة الحياة باعتدال.

فهم يطالبون الدعاة أن يتفهموا المجريات من حولهم، ويهدءوا إذا هبت العواصف عليهم.

لا يودّون أن يحرجوا أنفسهم مع أحد، أو يدخلوا في مساجلات تمنعهم من دخول بلد، أو فتح الأعين عليهم.

يقدِّمون رجلًا ويؤخِّرون أخرى إذا رأوا أمام أعينهم الأحزان والمصائب التي تعصف بالأمة، فيقولون بكل قوة: لا للعنف والتطرف والتهور والإرهـاب، ولكنهم لا يمكن أن يقولوا: لا بدَّ من الجهاد والمقاومة!

إن المشكلة الكبرى عند أصحاب الدعوة الناعمة أن تكبر مصالحهم مع الأيام، فيصعب أن يعارضوا بسببها أيَّ ظالم!.

إننا نتفهَّم أن يكون هناك دعـاة أصحاب تقريب المسئولين والوجهاء بالحكمة والموعظة الحسنة، ونتفهم أن يُقدّروا الخير الذي يجري على أيديهم لمصالح الدعاة ومصالح العامة، ولكن لا نتفهم أن يُهمل الناس في وقت الحاجة بموقف مشرِّف ومُعين في ساعات العسرة.

لقد سمعت أحد الدعاة يقول: أنا عليَّ الأمر بالمعروف، وعليكم النهي عن المنكر!.

وهذا التفكير لم أستوعبه لا منطقيًّا ولا شرعيًّا ولا تاريخيًّا.

لا أستوعب أن تتشرَّب النفس فضيلة الأمر بالمعروف وما قد تتطلَّبه من هدوء ومرونة وتؤدة ودعوة ناعمة، ثم لا تقال كلمة ولو من باب المناصحة لمن غيَّبوا الخير والحقَّ والحقيقة.

لا أستوعب أن يُمطرَ قومُ الشعبَ بكلِّ رذيلة، ويقطِّعوا كل حق،

ويُفشوا الظلم في عهدهم، ثم لا ينالوا من الدعاة أيَّة مناقشة أو محاورة أو مكاتبة.

أنا لم أقرأ في التاريخ الإسلامي كله أن دعاة الإسلام بلغ بهم التكتيك وفنون المداراة، أن يحملوا على ظهورهم أوزار الظلم، وتفشي الفساد، ونزول النقمة، وحرمان القطر!.

وبإيجاز: من لم يحمل قلبه الحيّ، وفكره الواعي، ولسانه الحكيم بين الناس، فالناس في غنىً عنه، فهو تمثال بلحية وثوب قصير!!.

الكرم الدعوي

في منزلي المبارك بزائريه دار الحديث بين الشيخ الداعية الكبير محمد أحمد الراشد، ود. طارق السويدان، حول صفات القائد، وذكر د. طارق أن خلق (الكرم) من الصفات التي لا يُطالب بها القائد، في حين برهن الشيخ محمد أحمد الراشد عبر مسيرة التاريخ أن هذه الصفة مهمة، ويجب أن يتحلى بها من رشَّح نفسه للقيادة، وأنا معه في أهميتها، ومع د. طارق السويدان في التركيز على بعض النقاط التي يمكن أن يُعبَّر عنها بالصفات المكتسبة.

إنه من المحزن، بل ومن المحزن جداً أن تكون بيوت الدعاة عبارة عن متاحف لا يُلتقى فيها إلا في مناسبات أو جلسات متباعدة!

نعم نحن في عصر التكنولوجيا ووسائل الاتصالات المتطورة، ولكن هذا شيء، واحتفاء الداعية بالضيوف وإكرامهم وجمعهم على مجالس العلم والدعوة والخير والسعي لنشر الفضيلة شيء آخر.

الداعية بحاجة إن أراد أن يكرمه الله ويعوضه خيراً أن يمنح من ماله لاستقبال إخوانه الدعاة، لا أقول بشكل مفتوح، بل بشكل منتظم، وعلى قدر الميسور.

إن خلق استقبال الضيوف والاحتفاء بهم ـ حسب الميسور ـ بشكل منتظم له أثر نفسي وتربوي، ومعه عائد مادي!

فبذل الوقت والمال وخدمة الناس له بركة على صاحبه.

إن إشاعة خلق الإحسان للناس من خلال البذل قدر المستطاع، والترتيب في اللقاء بهم، والاحتفاء بمجالسهم، بكلمة طيبة، أو مساهمة في حل مشكلة، أو الشفاعة لمساعدة، هو من متطلبات وأدوار الداعية.

اقرأوا أيها الإخوة كتب الذكريات والمذكرات عن كبار الدعاة في مصر والشام والجزيرة، اقرأوا في سيرة أصحاب الصالونات الأدبية والثقافية، ستجدون أن الجوانب الاجتماعية والعناية بهذه المجالس وما ينشأ عنها من أعمال نبيلة وخيرِّة، هي السبب الأكبر في توفيق أولئك الدعاة، والرفع من قيمة أعمالهم ومشاريعهم وبرامج تعليمهم، لا العكس!

إنه من الجميل والجميل جداً أن يكون كل بيت داعية محضن للخير، وملتقى للفكر والثقافة والأدب، ومرة أخرى في حدود المستطاع، مالاً ووقتاً.

ثم إن مثل هذه اللقاءات لها تأثيرها العميق على أهل البيت أماً وزوجة وأبناءً، وتجذِّر في نفوسهم حب العلاقات الطيبة، لتتجلى آثارها بعد حين.

ويوم تتحول بيوت الدعاة إلى مجالس موسمية، أو ملتقيات تحت دائرة الإحراج، أو لعدم الظهور بالمظهر السلبي أمام الملأ، فإن تحول البركة من هذه المساكن أمر يدعو للشفقة!

ومن تأمَّل ما قام به الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما تنزَّل به القرآن في الثناء على أعمالهم ومواقفهم النبيلة، يدرك سر التوفيق الرباني، وتوثيق الترابط الاجتماعي بينهم، والسعادة التي غمرت حياتهم، والرحمة التي ملأت بيوتهم.

إن الفقر الحقيقي ليس هو فقر المال إنما هو فقر العطاء!

اللقاءات الدعوية

«ما التقى مؤمنان إلا أفاد أحدهما الآخر خيراً».

هكذا يقول الصالحون من سلف الأمة، ويؤكد على هذا الحال كل من بعدهم.

«اللقاءات الدعوية» التي يتذاكر فيها الإخوة في الله، دروس الإيمان، والتفسير، والسيرة، والتاريخ، والفقه، والدعوة، والأخلاق، لساعةٍ أو ساعتين في الأسبوع، هي دأب الصالحين، من لدن عصر الصحابة الذين رفعوا شعار «هيا بنا نؤمن ساعة».

ولا يمكن لمجلس من المجالس تحفه الرحمة، وتغشاه السكينة، وتحضره الملائكة، ويذكره الله في الملأ عنده، أن يكون وضيعاً، أو لا أثر له ولا روح؟!

ولذا ثبت في ترجمة الإمام أحمد وهو من هو في علمه وصلاحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ دوامه على مجلس بشر بن الحافي، وتعرضه لنفحات الله ورحمته!

إن «اللقاءات الدعوية» هي تجمُّع أنفاس الصالحين، وتراكم خبرات العاملين، وتذكير بهدي ودأب الصالحين.

وفوق هذا وذاك هي قربى لأولي البصائر، وذكرى لأولي الألباب.

ولو لم يكن من هذا وذاك إلا أن يقال عنهم «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»، لكفى!

«اللقاءات الدعوية» هي محطات وقود يحتاجها الجميع للسير في ركاب الحياة.

«اللقاءات الدعوية» هي مغذِّيات للقلوب، واستنارة للعقول، وتجديد للقيم، وتذكير بالعهد مع الله، والميثاق الرباني لنصرة دين الله.

«اللقاءات الدعوية» بسمات أخوية، ولمسات إنسانية، وخلجات وجدانية، ومساندات نفسية.

«اللقاءات الدعوية» إزاحة للهموم الآنية، والشوائب الذاتية، والتحرشات الشيطانية.

«اللقاءات الدعوية» كلمة ترقق القلب، ودمعة تغفر الذنب، وقصة تجدد العهد، ولطيفة تبهج النفس، وبشرى تفتح الأمل، وحكمة تسدد العقل، ومسألة تؤصل الفهم، ومثَل ينفع في الطريق، ودعوةٌ تُصلح العمل، ولقمةٌ تَجْمع الشمل!

«اللقاءات الدعوية» تحتاج إلى نية خالصة، ومودة حانية، ومدارسة نافعة، وأوقات مقدَّرة، ونفوس مهيئة، لعطاء الله ورحمته.

يقول الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ (الأحزاب:٣٥) «وذكر الله كثيراً: حلقة الاتصال بين نشاط الإنسان كله وعقيدته في الله.

واستشعار القلب لله في كل لحظة، فلا ينفصل بخاطر ولا حركة عن العروة الوثقى، وإشراق القلب ببشاشة الذكر، الذي يسكب فيه الحياة والنور».

ويقول العلماء في شرح الحديث القدسي المتفق عليه «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»:

«وثمرة ذكر الله لهم فيمن عنده من ملائكة كرام ذوي مكانة عليَّة أمران:

الأول: تكريمهم وتمجيدهم.

الثاني: إطلاق ألسنتهم بالثناء عليهم والدعاء لهم بالرحمة والغفران».

فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر، وهب لنا من واسع فضلك ما تغنينا به عمن سواك.

المقارنات التعيسة

يا الله.. أيعقل أن تختل مفاهيم التعامل للآخرة حتى عند (الدعاة) الداعين للآخرة؟!

نعم، ولم لا؟ أليسوا هم بشراً كغيرهم.

إننا نؤمن أن الدعاة متفاوتون في علمهم، وتنوع ثقافتهم، وما يحيط بهم، وما يجري حولهم، وما هو من أولوياتهم واهتماماتهم، ولكن يجب أن تكون هناك معايير وأسس ومنهجيات عامة وعريضة، يتفق عليها كل الدعاة، بل ويؤمنون بها وجوباً، مهما كانت مواقعهم واهتماماتهم.

ومن ذلك التربية الحسنة، التي تُعنى بالذات قبل تربية الآخرين!

ومن الأمور التي هي من ركائز تربية الداعية وأسس منهجياته، التربية على الإنصاف والعدل، التي تجلَّى في وصفها وشرحها عملياً من خلال فقه المقارنات لكل الشخصيات الذين ترجم لها، الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ في سير أعلام النبلاء.

ولا غرو أن نجد الدراسات والبحوث والكتابات التي تقتبس منه، وتقدمه بين يدي الدعاة، لئلا يعتذروا بطول العهد عنه، أو طول النَفَس فيه! فكان ممن عذرهم بذلك (د. محمد موسى الشريف)، في سلسلة الرسائل التي طبعها ملخِّصة منهج الإنصاف والعدل عند الإمام الذهبي.

والحق أن (سير أعلام النبلاء) يعتبر منهجاً للمقارنة بين العلوم، من خلال قواعد العدل والإنصاف التي طبقها الإمام الذهبي.

والمقارنة كما يقول الفلاسفة والمفكرون هي أسُّ العلوم، وقاعدة الفهوم الأولى.

بالمقارنة يستطيع الإنسان أن يستنبط، وأن يبني، وأن يحلل، وأن يوازن، وأن يختار، وأن يرسم قواعد ومفاهيم جديدة! كل ذلك من خلال الجوارح الكاملة، العقلية، والنفسية.

لكن الضرر الأكبر، والبلاء الأخطر، أن تتحول هذه المقارنات إلى نسف، وتسفيه، وحسد، ومرض داخلي، وأنانية بغيضة!

فهي مقارنة ليست للتكميل، وليست للتحليل، إنما هي لمعرفة جماليات الغير التي يصاب قارئها بالغيرة أو الحيرة أو الحرقة!

أو لربما لتتبع عثراتها، وسوءاتها، وثقوبها، التي يداري بها نجاحاته لا أكثر!

إن الله سبحانه وتعالى أحنّ على كل خلقه، وأوسع من أن يجعل الخير والنجاح والحب في قلب أو عقل أو روح واحد من الخلائق حاشا الأنبياء!

إن المقارنة لا تتم إلا لمن ارتدى نظارة صحية يرى فيها الأشياء الجميلة، والصورة الكاملة، فتتفاعل نفسه معها بكل عفوية وجدية بما يحتمه الموقف.

بينما من ارتدى نظارة سوداء عن قناعة يريد من خلالها رؤية كل الصور على حقيقتها، فإنه سيرى ما يسوؤه ويتعسه في آن واحد!

النضج تجرِبة

هناك أسئلة تتوارد كثيرًا في محيط الدعوة: لماذا هناك بعض صغار طلبة العلم، أو صغار الدعاة، نالوا شهرة في الأوساط، وقُبلت آراؤهم، واحتفى الناس بدروسهم ومقالاتهم ومشروعاتهم، وغدوا حديث الناس في مجالسهم؟.

ودعوني أبدأ بهذه الحكمة العظيمة للإمام ابن الجوزي، في الكتاب الذي أتمنى أن يقرأه كل داعية، وهو (صيد الخاطر) بتحقيق الشيخ: علي الطنطاوي (رحمهما الله).

يقول ابن الجوزي: «إخواني.. اسمعوا نصيحة من قد جرَّب وخبر: إنه بقدر إجلالكم لله ﷻ يجلكم، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظم قدركم وحرمتكم، ولقد رأيت ـ والله ـ من أنفق عمره في العلم إلى أن كبرت سنة، ثم تعدى بعض الحدود فهان عند الخلق، وكانوا لا يلتفتون إليه مع غزارة علمه وقوة مجاهدته. ولقد رأيت من كان يراقب الله ﷻ في صبوته مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم، فعظم الله قدره في القلوب حتى علقته النفوس، ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير».

إنّ الإنسان يمكن أن يجرِّب العمل الإعلامي، فيتمرس فيه مع الأيام، ويحاول الإبداع لأنه يحبه ويهواه، فيغدو مع الأيام إنسانًا لامعًا، ورقمًا صعبًا.

وكذلك الإنسان الذي وجد فرصة في التعليم المبكر، على يد الشيوخ وأكابر العلماء، وأتيحت له أجواء تربوية ساعدته؛ ليشب على الحفظ والمراجعة، فيغدو مع الأيام إنسانًا بارزًا، وعلمًا كبيرًا.

ومع المجالسة والدربة ينضج الإنسان وهو في سن مبكرة.

لكني في الحقيقة وجدتُ أن هناك أمرًا مهمًا آخر لا يلتفت إليه الكثير!.

إذ إننا لربما نجد عددًا من الدعاة وجدوا نفس الفرصة الإعلامية والشرعية، ويحملون نفس المواصفات الإبداعية، والمؤهِّلات التقنية والقدرات النفسية والعقلية، ولكنهم مع ذلك ليسوا على نفس مستوى الناجحين من أقرانهم!.

فإن كان الأمر في تراكم التجارب التي تنضجهم، فلماذا أفلح قوم، وتعثر آخرون، وكلهم جربوا وتدربوا؟.

الحقيقة المهمة التي أود أن أنقلها لكم ـ إخواني الدعاة ـ أن النضج لا يَنشأ من التجارب المادية فحسب والمؤدية للنجاح، بل إن النضج الأهم هو النضج الإيماني!.

فتجربة صغار الدعاة في حسن العلاقة مع الله، والخشية منه، والبعد عن حدود الله، والصدق في التعامل مع الناس، وبر الوالدين، والسريرة الصالحة، والنية الخالصة، وطول الدعاء، كلها عوامل يمكن أن نسمِّيها تجارب إيمانية مستمرة، تحقّق النضج الإيماني؛ الذي يكون سبيلًا للتوفيق والنجاح والرضا من الله.

ألسنا نعلم كلنا أن من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس؟.

ألسنا نعلم كلنا أن الله إذا أحب عبدًا نادى الملائكة فأحبته، ووضع له القبول في الأرض؟.

إذًا ما علينا إلا أن نجتهد في التجارب الإيمانية المحققة النتائج، المتكاملة مع الجد في العمل لنستحقّ عطاء الله، وحب الناس.

بين التنازلات والتجديدات في المسيرة

سأقول في هذه المقدمة كلامًا مهمًا وخطيرًا!.

إن حال السلف الصالح (رحمهم الله) في التعامل مع الملفات الحياتية التي مرت عليهم كانت تمر بمنهجية علمية مرنة أكثر منها في وقعنا اليوم!.

بمعنى أننا نقرأ الآن في كتب السلف العلمية ـ على وجه التحديد ـ فنجد أن لديهم عشرات الأقوال في المسائل العصرية التي مرت في عهدهم، ما كان منها على المستوى السياسي أو الشرعي أو الاجتماعي...

ولو أخذنا كتب الأصول مثلًا لوجدنا أن لديهم قواعد ونظرات واستنباطات عالية الجودة، عميقة الرأي، مواكبة للعصر، مستندة إلى الأصل.

وتجد أن القواعد الفقهية الفرعية التي ذكروها، أو القواعد والأدلة الأصولية التي نشروها، إنما ذُكِرت على المذاهب الأربعة، محققة ومؤصلة.

واليوم ـ وفي الدراسات الجامعية العليا ـ نقرأ آلاف الرسائل العلمية، في موضوعات أصول الفقه، ومثلها في القواعد الفقهية، وأخرى ما بين استخراج تلك القواعد، أو استنباط قواعد جديدة، من خلال كتاباتهم وآرائهم القيمة.

ونحن اليوم نعيش عصرًا متغيرًا، وواقعًا مختلفًا، لا أقول: إننا نحتاج فيه إلى استنباطات وبناء قواعد أصولية وفقهية جديدة، على أهمية ذلك أحيانًا، بقدر ما نحن بحاجة إلى قراءة جادة، نابعة من نية خالصة، ورغبة في العلم، والدراسة والتحقيق الجاد فيما كتبه الأئمة والعلماء في كتبهم، وما نُقل عنهم، للوصول لا إلى وجود الأجوبة والحلول لقضايا ومستجدات العصر فحسب، بل للوصول للوحدة الفكرية، أو التفاهم حول ما يقال من مسائل، وما يُستند إليه من آراء، في صياغة المشروعات الإسلامية.

والمهم والخطير في هذه القراءة أن تُنقل بكل أمانة، وعبر دراسة متكاملة واعية، وأن تُعرض على القواعد الشرعية، والمنهجيات العلمية؛ لتُسهِم هذه الدراسات في بلورة جيدة ومتماسكة، تحل مشكلات العصر، الممثلة غالبًا في الخلاف حول التلقي وأسلوبه، لا حول وجود الخلاف في ذات المسائل، في الأعم الأغلب!.

إن تداول هذه الدراسات بطرق جديدة وعصرية، من قِبل المتمكنين، سيقرب وجهات النظر، ويُسهِم في إشغال الوقت بالمفيد.

وفي المقابل ستتضح الآراء الواهية، والاستنباطات غير المحققة، كما سيتضح الذين هم عالة في المسيرة، مقابل الجادين والمقتدرين والمتمكنين الواعين المخلصين الحريصين على مسيرة الدعوة، وبالتالي مسيرة الأمة.

جسر الدعوة

إنَّ مِنْ أمنِّ الأشياء على الإنسان، أن يستغلَّ لحظة صفاء في حياته؛ ليدلَّ الخلق على الخالق ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (فصلت: ٣٣).

وطريق الدعوة إلى الله كحال قافلة في طريق طويل جدًا، تحتاج إلى مئات المحطات والفنادق والأسواق والمطاعم ومرافق الراحة والترفيه؛ إذ لا يمكن للمرء أن يقطع آلاف الأميال دون توقف، أو وجود قرى أو مدن يسكن فيها، ليخفف من قطعة العذاب!.

وكلما طالت المسافة، وبعُدت المشقة، غدت الحاجة ماسة إلى الأنيس في الطريق، ومجلبات الأمان بين القرى والمدن.

وهكذا هي الدعوة..

نحن في طريق طويل جدًا، نحتاج كل الوسائل والطرائق المعينة، نحتاج المؤسسات الخاصة، والمؤسسات الحكومية، نحتاج المرافق الشخصية، والمرافق العامة، طالما أنها كلها تسعى لخدمتنا وراحتنا!.

فكل من يساعد القافلة للوصول إلى غايتها مشكور مأجور، والدعاة إلى الله هم أصحاب هذه المرافق العامة والخاصة، الكبيرة والصغيرة.

كل الحركات الإسلامية، أو التيارات الإسلامية، أو المجموعات الإسلامية، كلها لا بد أن تؤدي دورها؛ من أجل إيصال الناس لطريق الله.

ليس هناك أحد مسئول لوحده، أو وكيل حصري لإيصال الناس إلى ما يريدون.

الطريق طويل، وهذه المحطات والمؤسسات ما هي إلا على جوانب الطريق، وعلى مسافات متباعدة!.

لندع التيارات والحركات والجماعات والمجموعات تعمل تحت أي غطاء أو مظلة، أو تحت أي شيء، سمته أم لم تسمه.

لندع الدعاة يبتكرون ويفكرون، ويُبدعون، ويُسهمون في خدمة الناس، في هذا الطريق الطويل، والرحلة الشاقة!.

لندع لكل فرد يريد خدمة الناس، أن يفكر بحرية كاملة، أن يختار أية جهة أو مؤسسة، أو حتى يختار هو جهة باسمه، أو مؤسسة مع غيره، كله لا يهم، المهم هو العمل وفق المنهج المتفق عليه.

القول سهل باللسان وإنما بالفعل يُمتحن الفتى ويُصنَّفُ

لو نظرنا إلى قوافل الحجَّاج التي تزور مكة والمشاعر، لوجدنا مئات الجهات ومئات المشاريع التي تسعى لخدمتهم، بل لتحسين الأداء، لأداء نسكهم بكل راحة وسهولة.

وكذلك نحن في عالم بحاجة إلى مئات، بل آلاف، بل عشرات الآلاف من المشاريع والأفكار الصغيرة والكبيرة، العامة والخاصة، من الشركات الكبرى العملاقة والمنظَّمة، والمؤسسات الصغرى الفاعلة، بل حتى وقفات المجموعات، وحيوية الأفراد الجادين.

في المآل كل الذي نريده: أن نصل بالناس إلى الطريق الصحيح، بالمسلك الصحيح.

إن الحركات والتيارات والجماعات والمجموعات والأفراد لا فخر لهم أمام الله وأمام التاريخ إلا بحجم الإنجازات، سموا أنفسهم أم لم يُسموها!.

وإذا كان كل رجال الدعوة يمدُّون الجسور للناس، فما لهم لا يمدُّون الجسور لبعضهم، ليتفاهموا في الكسب، لا ليتحدوا في المكسب؟!!.

شبكة العلاقات

جُبلت الحياة التي نعيشها على تشابك غير منتهٍ في مسألة العلاقات.

فثمة قضايا كبرى وصغرى في حياة الناس لا تُحَل بالإجراءات الطبيعية، والخطوات الإدارية المرسومة.

والسبب ليس غالبًا في طبيعة الخطوات والإجراءات، إنما هو بقدر طبيعة الناس، والعاملين في القطاعات المختلفة.

إن مستوى العدالة المطلوب، اليوم وفي ظل التطورات الهائلة، يجب أن يرقى ليختصر أوقات الناس، ويُسهِم في البناء والنهضة، على جميع المستويات.

ومع هذه المطالبة الملحة، والكتابات المتكاثرة، والحناجر التي بحت أصواتها بالنداء، يبقى الوضع على ما هو عليه، في الأعم الأغلب!، والسؤال: ماذا عن واقع العمل الدعوي تجاه هذا الحال؟.

أولًا: الدعوة ليست بدعًا عن الواقع والتجارب التي تشاهدها، وتشير بها عجلة الحياة.

ثم إن الحياة اليوم ثانيًا تشير بمجملها على طريقة العلاقات، وهذا الاتجاه ليس بقرارنا، ولا تكريسه باختيارنا!.

بل بالعكس؛ فإن تكريس مفهوم العلاقات صار متجذرًا بطريقة لا مثيل لها..

ونحن في العمل الدعوي يجب أن لا نعيش معزولين عن الواقع، بل يجب أن نعيش عصرنا، الذي هو تجربة وفرصة واحدة نراها، ولا نرى غيرها.

لا بد أن نسير في خطين متوازيين قدر المستطاع.

خط يتجه صوب المطالبة والبدء بخطوات التطوير في الأعمال، والإسهام في معالجة مشكلة (البيروقراطية) التي يعيشها المجتمع، بالألوان والطرائق العصرية، عبر مواقع الإنترنت، وبرامج الحوارات الفضائية، والمشاهد التمثيلية، والحملات الشعبية، والبرامج التشويقية التغييرية.

وخط آخر موازٍ يتجه صوب شبكة العلاقات على جميع الخطوط، واستخدام أدوات بناء العلاقات، والتواصل الاجتماعي الراقي والنافع، البعيد عن أي شيء فيه شبهة، فضلًا عن الاقتراب منه.

إن كثيرًا من الأعمال والمشاريع الدعوية أُوقفت أو تعثرت

بسبب عدم وجود علاقات مع أصحاب الرأي والسلطة، وكثير من المشكلات تجذرت واستمرت عقودًا من الزمان نتيجة عدم وجود أفراد أو مؤسسات يمكن أن يكون لها علاقات ومواقف جيدة، تُسهِم في التخفيف من المشكلات أو إنهائها.

إن ثّمة أمورًا يسيرة أحيانًا كوجود مرضى، أو محتجزين في السجون، أو متعثِّرين في مسيرة حياتهم، إنهم لربما أفراد لكن هؤلاء الأفراد يشغلون مجموعات وعوائل، وأحيانًا فئات كبيرة من الناس، كل ما في الأمر أنهم بحاجة إلى من يقف لحل مشكلتهم، عن طريق فلان أو فلان ليس أكثر، لأن كل أو جل تلك المشكلات روتينية وخاصة!.

بل إن هناك مشاريع دعوية لا تجري الأقلام بالتوقيع عليها؛ لأن المقدِّمين استخدموا كل الوسائل العادية في التقديم، لكنها لم تحمل اسم فلان أو فلان لا أكثر، فتأخرت عقودًا من الزمان.

هل دور الدعوة يا ترى تغيير أصحاب الكراسي، أو تغيير أدمغتهم، أم إن دورها أن تأخذ حقها، وتمارس دورها بشكل صحيح، وبطريقة تفكير هؤلاء الناس؟.

ليس من العقل ولا من الحكمة أن نتراجع للوراء، ونترك هؤلاء يتحكمون في مسيرة الناس، ونستمر في مخاصمتهم، دون أن نحُلَّ أيَّة أزمة، ولو كانت إنسانية!!.

إن مهارات ومواصفات العمل المرتبط بالعلاقات يحتاج إلى شيء من الفذلكة، ومعرفة مداخل الترابط العائلي، وطبيعة التشارك فيما يهم أفكار أصحاب القرار. إن المسألة لا بد أن ترتبط بشبكة علاقات مفتوحة على جميع المستويات، والتداخل في جميع القطاعات.

لطالما لم تختفِ القيم، وحضرت النيات لخدمة الناس والدعوة، فلا بد أن نحاسبَ الأجيال على قصورها في فهم طبيعة الحياة وطريقة تحريكها، فالنصوص في تطبيقات الدعوة لا تدعو للجمود، إنما تدعو للحصافة والدهاء والعمل، وأمام هذا المفهوم يمكن أن نتذكَّر الشاهد النبوي: ويلَ أمِّه مسعِّر حرب لو كان معه رجال!!.

طبائع الجماعات والحركات

هناك دراسات كثيرة تحدثت عن العمل الإسلامي، من داخل الصف وخارجه.

وتلك الدراسات حملت في الأعم الأغلب جوانب نقدية، منها ما يستحق الإشادة والاهتمام والمراجعة، ومنها ما يستحق التجاوز!.

ومما لا شك فيه أن العودة إلى الخلفية الذهنية والنفسية والتاريخية للكُتَّاب قد تشكل انطباعًا عن نوعية تلك الدراسات ودلالتها.

وفي إحدى دراسات النظر المميزة في واقع الجماعات والحركات الإسلامية، لفت الفيلسوف المغربي (د. طه عبد الرحمن) الانتباه إلى التأمل في طبائع الحركات الدينية والفكرية، وركز فيها على الصوفية والسلفية.

ولاحظ (د. طه) أن ثَّمة قوانين عامة تسري على كل الجماعات والطرق، وهي ثلاثة قوانين:

أ ـ قانون التحوّل: وقصد به أن كل جماعة وطريقة تمر بتحولات؛ نظرًا لتطور العامل الزماني، والاختلاف البيئي، وعامل التكوين الشخصي للقيادات والأفراد، وهذا التحول قد يكون إيجابيًا، وقد يكون سلبيًا.

ب ـ قانون الدور: وقصد به أنه ما من مذهب فكري أو عقدي إلا ويمر بمرحلتين متقاربتين أو متباعدتين، إما في جانب الاجتهاد والتجديد، وإما في جانب الجمود والتقليد.

وهذا الدوران قد يكون إيجابيًا متطورًا مع المبادئ، وقد يكون سلبيًا ينكمش على ذاته، ويجدد من تكريس سلبياته، ولعل هذه النماذج ملاحظة في تقوقعها وتراجعها مع كل مراحل التجديد والدوران الطبيعي!.

ج ـ قانون التغلُّب: وهو استغلال الفرص في الظروف المواتية للنيل من خصوم أيَّة جماعة أو حركة أو مذهب أو طريقة!.

وفي لحظة الهجوم على الخصوم قد تستخدم كلُّ أساليب الاتهام بالعمالة، والميل مع المصالح والأهواء!

وهي وسائل كأوراق التوت، لا تستقرُّ على حال.

وفي هذه المرحلة الثالثة قد تُغذِّي أفكار الكثير من العلماء وطلاب العلم والدعاة والخيِّرين، فيخرجون بإدانة شاملة لكل الجماعات التي لم ينلْها الحظ في البقاء، ولم يسعْها الرد على كل الأباطيل التي نالتها.

ونحن أمام هذه الحقائق الثلاث التي يشهد لها التاريخ، ويمهر على صحتها كل العاملين في الحقل الإسلامي، تُتطلب اليقظة، والاتجاه صوب ما يمليه الضمير الحي، والروح الطيبة، و(العقل المسدَّد)، حسب تعبير د. طه عبد الرحمن.

كتابات الدعاة

الإنسان ابن بيئته، كما يقول ابن خلدون، ويمكن أن نضيف: رهين قدراته ومواهبه واتجاهاته!

كثير من أبناء الدعوة استفادوا من كتب ومقالات وتأملات الدعاة في كتبهم المباركة، التي عبرت الزمان والمكان والأنفس!..

وكثير من الدعاة تربَّوا على هذه الكتب، ولازمتهم فترة من عمرهم، وأثرت في تكوينهم بنسب مختلفة.

وقديمًا كان كبار الدعاة ـ من المؤلفين المقتدرين ـ يُطالبون بتأليف كتب تهم جيل الدعوة ليستفيدوا منها، مراعيةً الأسلوب والفن المناسب لهم.

فقد طلب دعاة الكويت الأكابر من أستاذ الدعوة الشيخ محمد أحمد الراشد، كتابة مقالات يتابعها جمهور الدعاة في مجلة (المجتمع)، فكانت حلقات (المنطلق) و(العوائق) و(الرقائق)؛ التي صدرت بعدئذ في كتب مشهورة، وبها عُرف.

ومن قبلُ طلب الإمام حسن البنا من الشيخ سيد سابق كتابة الفقه بأسلوب عصري وعلمي، فكان الكتاب الفقهي العصري الأشهر (فقه السنة).

وهناك عشرات الشواهد على مثل هذه المطالب، ككتابات الأستاذ فتحي يكن، وكتابات الشيخ: جاسم مهلهل الياسين، وسواهم.

وهذه الكتب المهمة أدَّت دورًا مهمًا ولا تزال؛ لأن موضوعاتها التربوية والدعوية، ومفاهيمها الإيمانية والسلوكية، إضافة إلى بنائها المحكم والمتميز في الأعم الأغلب، تحتاجه الأجيال في بنائها الداخلي.

ومع ذلك تطور جيل من الدعاة في كتابة المستجدات التطويرية التنموية، ومعالجة المشكلات الناشئة في حقل الدعوة والدعاة، بعناية جيدة، ومراجعة جادة.

ولا يزال الأمر بحاجة إلى الكتابة، فهي بوابة الوعي، وطريق النجاح والتقدم.

إلا أنني في الحقيقة لاحظت بعض النقد ـ الذي لا شك أنه نابع من قلب الغيورين ـ، على القصور في طرح الدعاة للكتابات الموائمة للمستجدات، بل إن بعضهم ـ مع إحسان الظن بهم ـ قسَوا في عبارات التأخر عن الكتابة، وغياب الرموز في المواكبة.

وقد دلَّل البعض على ذلك بذكر أسماء لامعة غائبة عن الساحة، والواقع أن الكثير من الدعاة والرموز يكتبون بين فَينة وأخرى، كتابات ناضجة وحيوية وجديدة، ولكن للأسف لا تُتابع بشكل جيد، حتى من قِبل نفس المعترضين والمتسائلين!

هناك في الحقيقة مؤلفات رصينة، وسلاسل دعوية مفيدة، تحتاج من جيل الدعاة إبرازها، والصبر على قراءتها، ومتابعتها، والاستفادة من مضامينها.

الاحتفاء بالكتاب مظهر حضاري، ومطلب لأولي الوعي والبصيرة، فكيف إذا كانت الكتابة من قِبل كبار الدعاة، ذوي الخبرات والمعلومات الثرَّة، وممن ملَّكهم اللَّه أدوات الكتابة بشكل مؤثِّر؟.

أظن أن من واجب مجموعات الدعاة في ظل التقنية الحديثة، أن يُنشئوا مواقع تهتم بالثقافة والكتابة الدعوية، وتروج لها عبر الإيميلات والصفحات الخاصة، وأن تنقل بينهم صور الكتب، كما يتم بينهم تبادل الحديث حول بعض الكتب هذه؛ التي يقوم البعض بتلخيصها وعرضها أمام جمهور الدعاة.

وأظن أن هذه المهمة هي في سلم الأولوية إن أردنا أن نستفيد من كبار الدعاة، بدل أن نطالبهم بشيء قد كتبوه، في حدود طاقاتهم وجهدهم!.

لماذا تتعثر المشاريع الدعوية؟

أعتقد أنه سؤال كبير ومهم وخطير في هذه المرحلة الحاسمة في تاريخ الدعوة الحديث.

إن الحديث هنا ليس عن المشاريع الصغيرة والمحدودة، بل الحديث هنا عن المشاريع الكبرى والمسموعة قلَّت أو كثرت حسب البلدان.

وطرح مثل هذا السؤال في حد ذاته يبعث على طرح استشكالات داخلية، ويستفز نفسيات كثيرة، ويقلب الجرح لفتح ملفات عديدة!

ومرة أخرى: لماذا تتعثر المشاريع الدعوية؟

ولنبدأ من الأساس، الذي يبنى عليه كل قياس.

١ـ إن النية هي الخيط الأول لنسج المشروع، أو فكه بأصغر إبرة!

إنه ما لم تكن النيات خالصة، والأهداف مبتغاها نصرة دين الله، ومرماها السعي للتمكين في الأرض، فإن العمل مهما كان

التخطيط له كبيراً، والتمويل له ضخماً، والاستعداد له عظيماً، فإن سنة الله أن الزبد يذهب جفاءً!

ولذا فإن تجديد النية في المشاريع الدعوية مرغوب، والتأكيد على العاملين بهذه القضية مطلوب.

فكم من أعمال بدأت صغيرة ودامت أعواماً مديدة، وامتدت لآفاقٍ بعيدة، ببركة الإخلاص وحسن المقصد.

وكم من أعمال أنفقت عليها الجهود المادية وثمرات الأوقات، فنالها من التناوش والشتات، ما ذهب بريحها، وجعلها خبراً بعد عين.

٢ـ أول شيء جاء به الإسلام وأقرَّه في بناء المجتمع النبوي (الإخاء)، ويوم يستورد العاملون للإسلام (أخلاق الأعاجم) فحينئذ فلنرقب الأنانية والمادية الآنية!

العمل للإسلام لا يحتويه إلا الإخاء، والمصابرة لنصرة القضايا الكبرى، والمشاورة الملزمة، والسمع والطاعة بالمعروف.

لا يوجد أي مشروع مهم في الحياة لا يعتريه النقص، والضعف، والاستشكال، ولكنه بعد الوضوح وضمان الأمانة، فإن التغيير لا يكون إلا من الداخل، مع التدرج في ذلك، وفق المعايير.

إن أول آفة تحطم المشاريع الدعوية (سوء الألفاظ) وجناية (سوء الظن)، و(الإحباط).

٣ـ الدعاة قبل كل شيء بشر، لديهم طاقات وقدرات محدودة، وإمكانات محسوبة.

والمغالطة في وضع (السوبرمان) قائداً ومخططاً وتنفيذياً ومراقباً ومسؤولاً مالياً ومفتشاً ميدانياً، كمن يملك قصراً فيه مئات العاملين لا يعرف مفاتيح الغرف للدخول والخروج إلا هو!!

لا مجال في المشاريع الكبرى لذكر جناح الصقور والعصافير، والصغار والكبار، المجال فقط للمقتدرين الناهضين.

إن العمل الدعوي يطير بجناحين قد تخفى وظائفهما على جملة من العاملين:

١ـ الاستهداء بخبرة الحكماء، والاستنجاد بعد الله ببركة المخلصين التقاة النبلاء.

٢ـ أن تعطى الأمانة للمؤهلين عملاً، وإتقاناً، ووقتاً، ومهارة.

والخلط بين هذين الأمرين مشكلة، وإن لم يكن إلا الفصل، فالعمل للمهَرة، والدعاء بالبركة من التقاة البررة!

ماذا يقرأ الدعاة؟

لا شك أن الحياة المدينة المعاصرة فرضت ألواناً من التعقيد، وسمات جديدة في التعامل مع الواقع، وغيَّرت كثيراً من الأولويات والاهتمامات.

وفي واحدة من إفرازات هذا التغيُّر وإشكالات آثاره الجانبية تبرز قضية العزوف المنهجي عن القراءة، التي تصب في تكوين الداعية بشكل مميز، وتؤثر على سلوكه ومنطقه، فضلاً عن تدينه.

وبعيداً عن التعميم الذي يدور في بعض الأوساط ما بين إحساس كبير بتراجع القراءة المنهجية وما يلحظ من آثار ذلك سلبياً، وما بين الاتجاه نحو النقلة الإيجابية في نوعية القراءة الحديثة، والالتفات إلى أولويات المطالعة، وثمرات ذلك عملياً في الحراك الميداني، أقول بعيداً عن هذا وذاك، فإن الواقع هو الحكم!

لا غرو أن نوعية القراءة لدى كثير من الدعاة اليوم تطورت في جوانب، وساءت في جوانب أخرى.

تطورت في جانب الوعي السياسي والاجتماعي العام، وهذه إيجابية ذات دلالة في منحنى فهم الواقع ومتطلباته.

كما أنها مالت لجوانب سطحية في القراءات العامة للقضايا الفكرية التي تمس الجانب الشرعي في جملة كبيرة من جوانبه المتشعبة.

وإذا كان «وراء كل دين إنسان متديِّن» كما هو تعبير صاحب كتاب الإسلام الشعبي «زهية جويرو»، فإن الدعاة الذين يمثلون حالة التدين، ويحركون هذا الدين مطالبون بإثبات فكرتهم ونظرتهم، الممثلة في ثقافتهم بهذا الدين، والتي ينتج عنها الأقوال والأفعال.

وبالاستقراء فنحن أمام ثلاث حالات، الأولى: الثقافة الهامشية أو الانتقائية لدى شريحة من الدعاة أدت إلى تبغيض الناس في الدين كما قال الشيخ الغزالي: «إن انتشار الكفر في العالم يحمل نصف أوزاره متدينون بغَّضوا الله إلى خلقه بسوء صنيعهم وسوء كلامهم!!».

وهذا حق، وشهادة ذلك جملة من خطباء الجمع، ومتحدثي الفضائيات، ومعلقي الإنترنت!

والحالة الثانية: نشوء دعاة يشكلون ظاهرة واضحة، وهم الجمَّاعون بغير منهجية، والذين سمَّاهم السلف «القمَّاشون»، وهؤلاء يجادلون في مسائل كلية وفرعية في الشريعة كأنها مناقشة الخبير،

ومجادلة المالك لآلة الجدال لغةً واستنباطاً، وهم مجرد مطلعين غير مُمحصين ولا منقبين، وغاية حجتهم إن وجودوا ما يخالف الرأي الذي قرأوه واقتنعوا به أن يقولوا: المسألة فيها خلاف، حتى لو كان الخلاف فيها ضعيفاً بل هزيلاً، لا يستند لحجة ولا محجة، وهذا النمط يدل على إشكال في تربية الداعية، وجدية تدينه، فضلاً عن تشتيت من حوله.

والحالة الثالثة: هم الدعاة الذين يبحثون عن الحق، ويقرأون بنصفة، ويراجعون الأقوال، ويناقشون الثقات، ويتحرون الدليل، ويحاسبون أنفسهم، حتى لا يتجرؤوا على حق الله وشرعه.

وحيال ذلك فإني أعتقد أن الدعاة اليوم ينقصهم التركيز في منحى القراءة والاستيعاب في ثلاث جوانب، هي:

الأول: التربية على المنهجيات العلمية في التعامل مع المسائل الشرعية وخاصة المستجدة، من خلال مدارسة كتب أصولية منهجية بطريقة مميزة ومركزة، ثم من خلال مناقشات وجلسات وأطروحات توضح هذه الأصول، وتشرح المستجدات، من المقتدرين الثقات، مع السماح بالمناقشة العلمية، والحوار المهذَّب.

الثاني: تقريب العلوم والدراسات بين أيديهم، من خلال المحاضرات والندوات والبرامج المركزة، التي تجمع بين التأصيل والمعاصرة، والإقناع وحسن الأسلوب.

الثالث: التذكير بالقيم التربوية المحركة لهم، من خلال كتب الرقائق، وخواطر الوعظ، وجلسات التصفية، فهم دعاة، وبضاعتهم الأساسية الإيمان، فالتزكية والروحانية هما الوقود الذي يحرك نفوسهم نحو الطمأنينة، ويبصِّر عقولهم للانصياع للحق، ويصلح قلوبهم ليتطابق القول مع العمل.

وبعد هذه القراءات الركيزة، نتوجه للحديث عن النظرات المكملة المهمة في ميدان الواقع الاجتماعي، والحراك السياسي، والحقل التخصصي، والجمال الأدبي، وبقية المجال المعرفي.

مراكز البحوث الدعوية

ليس هناك سبب رئيس لعدم طرح هذا الموضوع المهم منذ زمن سوى الانشغال بمجريات الحياة اليومية أحيانًا، وعدم الالتفات إلى أولوياتنا أحيانًا أخرى!.

إن موضوع إنشاء مراكز بحوث متخصصة في الشأن الدعوي، من أهم المشاريع الحيوية، والأولويات لأية دعوة.

إن دور هذه المراكز ـ بما تحويه هذه الكلمة من دلالاتـ له أثره الكبير في تصحيح المسيرة، والانطلاق بخطوات جادة وناضجة ومؤثرة، وفق الأهداف المرسومة.

وقبل توضيح هذه الآثار المهمة أجدني مضطرًا أن أعود لذكر مدلول المراكز الناجحة.

المراكز هي منشآت يلتقي فيها مجموعة من الخبراء والعاملين المكمِّلين لدورهم، تحوي مستلزمات البحوث، التقنية والعلمية والتحليلية والابتكارية.

وفي ظل العمل الدعوي نحن بحاجة إلى كل المستلزمات السابقة.

فنحن بحاجة إلى البرامج الحاسوبية، وتقنية المعلومات المتنوعة، كما أننا بحاجة إلى معرفة مصادر المعلومات والمعارف، وزد على ذلك التزود مما في المكتبات من مصادر وبحوث دراسات ودوريات، إضافة إلى دور الخبراء والباحثين والمهتمين؛ الذين يفكرون ويحللون تلك الدراسات والقراءات، ويلتقون بغيرهم من أصحاب الكفاءات، والمدربون تدريبًا متينًا وحديثًا على أعلى المستويات، ليصب ذلك كله في اتخاذ القرارات، ورسم الخطط والأهداف؛ التي تُسهِم في أداء الدور الرسالي والدعوي والحضاري، على أكمل وجه.

إن القضية ليست خبايا أو تحليلات لأهداف مشبوهة كما يزعم أعداء الدعوة، أو الخائفون على مستقبلها، باختلاق الأوهام والشبهات.

إنما الأمر في القراءة الواعية لواقعنا، وما يتطلبه مجتمعنا، وما ينبغي أن نزود به دعاتنا.

ويمكن لهذه المراكز وما تليه بعدئذ أن تركز على مسار أو مسارات عدة، على المستوى الداخلي أو الخارجي، وعلى مستوى الدعاة أو مستوى العامة.

ومن أمثلة ذلك:

وضع مسار يخص الدعاة والخطباء والمثقفين والمتحدثين في الأوساط المختلفة.

ومسار آخر يخص الإعلاميين، ويشمل هذا المسار الفضائيات والصحف والإنترنت ومستجدات الإعلام.

ومسار ثالث على مستوى الثقافة والتعليم، ورابع على مستوى العمل الخيري والإغاثي...

إن كثيرًا من ساحات مشاريعنا تفتقر للبناء القويم، والنقد السليم، والقياس الصحيح.

ومن نافلة القول أن يكون العاملون في هذه المراكز متفرغين للعمل، مهيَّئين للأدوار المطلوبة، مسبغين بالتكاليف الكافية!.

وأرجو إن فكَّر بعض النابهين بهذا المشروع أن يزوروا المراكز المتنوِّعة والقوية حول العالم، ليرسموا دور مراكزهم بشكل صحيح، ويبدأوا من حيث ما انتهى إليه الناجحون!.

نِعْمَ أجر العاملين

لطالما أن الإنسان مكلف بتكليف رباني، فإن هذه النعمة للمرء لا يصح أن تُزال بالامتهان أو القداسة لأحد!.

فالمرء حر ذاته، وتصوراته، وقراراته، وتطلعاته، في حدود مسئوليته التي جعلها الله (سبحانه) لكل مكلف.

وفي ساحة الحياة ينظر الإنسان إلى كل شيء حوله.

يرى ويسمع ويُحس ويفكر ويتألم ويحلم، إنه إنسان يتحرك كل شيء فيه طالما أنه حي!.

وهو بهذه الحياة الطبيعية المتجانسة، يختار الطريق الذي يرى فيه الاختيار الحق.

يمكن أن يرى أمام عينه طفلاً يقطع السيَّارة وتكاد أن تؤذيه، فيتَّجه نحوه، وهو يشعر بالخطر، لكنه يحس بالمسئوليّة، فيحرص ما استطاع النفاذ من الخطر، وتدارك الحدث.

هكذا هو الداعية باختصار..

يرى ويُحس ويسمع ويشارك ـ ولو بشعوره ـ الحياة من حوله، فيقرر المشاركة الدعوية، وتحمل المسئولية في برامج سلمية، نافعة للعباد والبلاد.

يشارك ما استطاع بصوته، بقلمه، برأيه، بفكره، بعلمه، بماله، بوجاهته، بقدراته، بعلاقاته، بأي شيء، المهم ألا يكون سلبياً!

وفي حدود هذا الاهتمام يكون ممن قيل عنهم: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ (الزمر: ٧٤).

ولو تأملنا أعظم مسيرة عملية دعوية على وجه التاريخ، لكانت مسيرة النبي ﷺ مع صحبه، الذين رضي الله عنهم ورضُوا عنه، ففتحوا البلدان، وأنشأوا الحضارة، وساد الإسلام الحق بهم في كل مكان.

إن هذا الجيل كان يتحمل كافة مسئوليات عمله، كانت لهم قراراتهم، ووظائفهم العملية؛ التي يطالب بها كل فرد منهم.

لم يكن الدعاة في ذلك الجيل العظيم يعملون بمفردهم، أو يكتفون بمشاهدة حركة التاريخ من حولهم، أو يعتزلون لمجرد عدم رضاهم عن قرارات مجلس شورى الصحابة، أو رأي أهل الحل والعقد فيهم.

إننا لم نسمع عن شركة عملاقة تدار بغير مسئولية، ولا تتحمل التبعات، ولا تحدث بينها خلافات، أو تباين في الآراء والاتجاهات والتطلعات.

لم تأتِ أية شركة ذات سيادة وقوة معجونة بلطف، أو مخلوطة برفق.

إن الشراكة في أي عمل قوي وجبار ومؤثر تتطلب قوة المبادئ، وقوة الاحترام، وقوة الحزم، وقوة الرأي، وقوة التقدير، وقوة العمل.

وهذه القوة ليست صياحًا أو خصامًا أو تبادلًا للنقائص والفضائح، إنما هي المشاركة بالتي هي أحسن.

والعمل الفردي فيه خير، والنظرة الأحادية أحيانًا لها مرتكزاتها ودلائلها وعمقها.

لكن لم يكن بحال من الأحوال عبر المعايشة البشرية، وقوة المؤثرين في التاريخ، أن يكون العمل الفردي صامداً لنهضة شاملة.

فالرؤية الفردية مالم تتكامل وتتجانس وتستوعِب وتقارن وتحاط بما يدعمها لا تقوم لها أيَّة قائمة.

إذًا في النهاية العمل الفردي الناجح هو المحاط بدعائم بقائه ونفوذه وتأثيره، سمِّي في المآل باسم صاحبه (فرديًا)، أم بالمجموعة المحيطة به ليكون (جماعيًا).

وعندما يقرر القرآن هذه القاعدة العظيمة ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فهو يضعنا أمام أمرين كبيرين:

١ـ أنَّ (الأجر) الذي يسعى له الداعية يكثر مع من يعينه عليه، ويشاركه فيه.

٢ـ أنَّ العاملين هم الذين يستحقون الإشادة والريادة.

إن قراءة عابرة ومتأنِّية لنقاط القوة والنجاح والنفوذ في تيارات التاريخ الحديث فضلًا عن غيره، لا تترك أمام الواعي أي مجال للحراك الفردي إن أراد البقاء والقوة، أمّا من يبحث عن العمل الآني، ويكتم في نفسه كل صراخ داخلي من آثار التفرد، فالتاريخ يحكي له أنَّه لا يرحم!!.

واقعنا الذي نعيشه ونصنعه

كثيرًا ما أجالس إخواني الدعاة، فأرى تباينًا في الأفكار والأطروحات والنظرات للمستقبل.

فمنهم من يرى أننا في واقع مرير، ومتخلف، وأنه قد أصابنا الخوف والذل، وتراجعنا في المسيرة الدعوية والإعلامية و...، وأن غيرنا سبقنا واكتسح الساحة!.

في حين تجد آخرين يتحدثون عن المجالات التي فُتحت لأهل الخير، عبر الوسائل والوسائط المختلفة، وحجم الجماهير الضخمة التي تبحث عن الدعاة والمصلحين، إضافة إلى اكتساحهم شرائح المجتمع، بعكس أصحاب النظرة الأولى.

والحقيقة أن كل طرف يعمل وفق مبادئه وأهدافه ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٨٤).

فعمل أهل الدين والدعوة والخير على أشُده، بالإمكانات المتاحة له، وشرائح المجتمع تميل إليه، بل تؤمن به، ولا أدل على ذلك من

الانتخابات، والأعداد الجماهيرية في الأنشطة الدينية والحياتية العامة.

وكذلك؛ فإن أصحاب الفن والإعلام غير الهادف، والساسة المخادعين، لهم برامجهم وأبواقهم ذات الأساليب الجذابة.

إن الذي يعيش في أوساط الإسلاميين الناجحين، ويقصد مشاريعهم التي يتزاحم حولها الناس، على جميع المستويات، بل حضور الشباب والبنات للبرامج التي يقدمها المعروفون بانتماءاتهم الإسلامية، وأفكارهم الدينية، يدرك أن العمل الإسلامي في توسع كبير، وله جمهور متأثر وعريض.

وفي المقابل من يَعِشْ في أوساط العاملين لفنهم الهابط، وإعلامهم المغشوش، وبرامجهم المغايرة لما عليه المجتمع المحافظ، وحجم التهافت على هذه البرامج والفعاليات، والتأثير الواضح على أخلاق الناس، وطبيعة حياتهم فضلًا عن تفكيرهم، لا يخالجه الشك، في قوتهم وتمكينهم وأثرهم.

هذه بعض الصور، ودوننا آلاف الصور الواقعية الجزئية في كافة الشئون.

إن الذي يعيش واقع العمل التربوي والدعوي الخيري، ويُسهم في إنجاحه بقوة وفعالية وإخلاص، لا يتسلل إليه أي شك في انحياز الناس نحوه، وتفاعلهم معه؛ لأن الفطرة في أصل خلقها تميل إليه!.

لكن إذا كان الداعية أو الناظر للعمل الإسلامي بشكله العام، غير مشارك من الداخل، أو غير مُسهِم في صنعه وتطويره؛ فإنه سيُفتن فيما لدى أصحاب الوجه الآخر.

إن الواقع ـ أيا كان ـ الذي نعيشه ونصنعه بكل حب وإخلاص، ونمنحه وقتنا وعطاءنا، هو البوصلة لحياتنا، والترموميتر لحرارة نفوسنا.

ومن نافلة القول أنْ أذكر أن العلمانيين والليبراليين والمجابهين للعمل الإسلامي في كل قطاعاته ـ السياسية والإعلامية والاجتماعية ـ يضيقون ذرعًا بهذا العمل، وتضخيمه، وتمويله الهائل.

وحينها سنلخص في زمن التحالفات والتكتيكات ونُذر العولمة، وتغيُّرات الواقع ومناخات الانفتاح إلى قاعدة مفادها: واقعنا هو الذي نعيشه ونصنعه!

الفهرس

مقدمة ٥
الفصل الأول: نحو تجديد الوعي ٧
إسلامية القرن العشرين ٩
الآراء الفقهية بين العلن والخفاء! ١٧
الأعمال الكاملة .. وحياتنا القادمة ٢١
الإنسان والتحول ٢٥
الإنسان والعصر ٣١
الحاكمية بين الإسلاميين والديمقراطيين ٣٥
النزعة إلى البروز ٣٩
الفكر السياسي بين القراءة والممارسة ٤٣
المحكوم عليهم فكرياً ٤٧
المدارس الفكرية والمفارقات الدعوية ٥١
أين الدراسات النفسية والفلسفية؟! ٥٥
بين المصير الفردي والمصير المشترك ٥٩
فقه الوقاحة ٦٣

من يحدد قضايانا المصيرية؟ ٦٩
الفصل الثاني: نحو تجديد الدعوة ٧٣
أخذ الأجور في العمل الدعوي ٧٥
الاستثمار الأمثل ٨١
الانتماء الدعوي ٨٥
التضحية ٨٩
التقويم الدعوي من منصب سياسي ٩٣
الخروج من الصف الدعوي ٩٧
الخوف من العقبات الأمنية ١٠١
الداعية الفالصو! ١٠٧
الدعوة الناعمة ١١١
الكرم الدعوي ١١٥
اللقاءات الدعوية ١١٩
المقارنات التعيسة ١٢٣
النضج تجربة ١٢٧
بين التنازلات والتجديدات في المسيرة ١٣١
جسر الدعوة ١٣٥
شبكة العلاقات ١٣٩
طبائع الجماعات والحركات ١٤٣
كتابات الدعاة ١٤٧
لماذا تتعثر المشاريع الدعوية؟ ١٥١

ماذا يقرأ الدعاة؟ ١٥٥
مراكز البحوث الدعوية ١٥٩
نِعْمَ أجر العاملين ١٦٣
واقعنا الذي نعيشه ونصنعه ١٦٧